الوعي الاجتماعي

✳

من الالفاظ الجارية على الالسن عبارة الوعي الاجتماعي . فالوعي الاجتماعي ميزة الشعب الناضج ، وهو ضرورة لازمة للنهوض والتقدم ، ولذا فهو في نظر الكثير من ذوي التفكير العاطفي مظهر من مظاهر حياتنا الاجتماعية .

الواقع ان عبارة الوعي ، على اتساع مدلولها ، تتضمن في جوهرها معنى اساسيا ، وهو ان تنتظم في وحدة متماسكة لا فكاك لها عناصر الزمن الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل . فليس الوعي وعيا اذا اغفل عنصرا من هذه العناصر . وابسط مثال على هذا مثال الرجل الفرد : فالفرد لا يمكن ان يعتبر واعيا في موقف من المواقف الا حين يتناول باتباهه المركز وجوده في هذا الموقف ، منسجما مع وجوده التاريخي الذي سبق هذا الموقف ، ووجوده المقبل والكامن في حيز الامكان ، بحيث يستعين بالذاكرة وبملكة الابداع لينسج من ماضيه وحاضره ومستقبله صورة واحدة لفكر واحد ، وعمل واحد ، وشخصية واحدة . والنتيجة الطبيعية للفشل في هذه المهمة هي التناقض وعدم الانتاج : فهاتان الصفتان هما على النقيض تماما من الوعي ، وهما الكاشف الصريح لانعدامه .

والمجتمع كالفرد تماما في هذا المجال ، فالامة التي تحيا زمانها في عناصره الثلاثة هي الامة الواعية ، وهي على العكس من هذا اذا نسيت ماضيها او اغفلت التفكير في مستقبلها ، بحيث تفقد شخصيتها ويؤدي بها الارتباك الى الوقوف والركود ثم التقهقر .

من الافكار الشائعة ان للماضي في نظر العرب كثيرا من الاثر والاعتبار ، وان فرط الاهتمام به هو الذي يسد عليهم مسالك التفكير في المستقبل . والحقيقة ان العرب اقل الامم اهتماما بماضيهم ، فما بهذا الماضي من مفاخر ومساوىء مطوي في النسيان ، اذ ان تاريخ اغلب الاعمال والرجال العظام فعلا لا يلقى شيئا من عناية الدرس والابراز والتخليد ، كما ان اخطاء الماضي لا تحظى بأي بحث مفيد . وكل الاثر الذي يحدثه الماضي في العرب اليوم هو هذه النفحة العاطفية الخالية من أي مظهر من مظاهر الفكر الباحث .

لذا فانه من الضرورة بمكان ، في فترة التحول الراهنة ان يوجه العرب لماضيهم اهتماما مرتكزا الى اساس من الفكر العلمي المجرد ، بحيث يكون ذلك نقطة انطلاق صحيحة نحو البعث . فما الماضي في الواقع الا الطريق الى المستقبل .

ولما كان واجب كل امة ان تقوم بنشاط حضاري يكون بمثابة اسهام جماعي صميم في بناء حضارة الانسانية واثرائها ، فان على العرب ان يتناولوا الماضي من هذه الزاوية بل يجب ان يخرج الفرد العربي من عيش حاضره الخاص ، والمتمثل في شؤون الانا الفردية ، لكي يرقى الى عيش حاضر الامة باسرها ، حيث يبلغ مرتبة الشعور بالتبعة الاجتماعية التي يؤمن معها بانه جزء من كل متعاضد متماسك ، فيأخذ في التجاوب مع معاني الاخلاص لمصلحة المجموع ، والتضحية في سبيل العلم او الفن ونحوه ، ومن ثم يستطيع ان ينتج انتاج امة لا انتاج افراد ، ويؤتي بذلك ثمرات ذات قيمة حضارية ، فلا يظل عالة على مجهودات غيره من البشر .

ان النتيجة الطبيعية لادراك الماضي والحاضر والمستقبل هي ان يتجسد للامة كيان موحد له شخصيته ومسؤولياته . وهذا الادراك او هذا الوعي الاجتماعي هو الاساس لتكون الشعور بالتبعة الاجتماعية الذي هو مصدر كل نهضة حقيقية .

محمد وهبي

الفلسفة والمدينة

بقلم الدكتور محسن مهدي

في فاتحة محاورة « فايدروس » يخاطب سقراط صديقه فايدروس بقوله : « اذا سرت على طول الطريق الى ميغارا ، واذا ما وصلت سورها ثم عدت القهقرى ، كما يقول هيروديكوس فلن اتركك » . بهذا القول يرمز افلاطون الى طريق الفيلسوف وعلاقته بالمدينة . ففايدروس كان طيلة الصباح داخل المدينة ، داخل اثينا ، في بيت ليسياس بن كفالوس السفسطائي ، الذي يعيش ويعلم داخل المدينة . وقد خرج الان من المدينة ليتمشى خارج سورها لان السير خارج السور ، كما قال صديقه وصديق سقراط اكومنس ، أكثر صحة . وفي داخل المدينة سمع فايدروس مقالة عن الحب من ليسياس ، وسقراط يريد سماعها منه ، وضمن حديثه هذا يخاطب فايدروس بقوله الذي ذكرناه .

والظاهر من قول افلاطون ان الفيلسوف يخالف السفسطائي في طريقته ، فالسفسطائي يجلس داخل المدينة ، محددا ببيوتها واسوارها ، اما الفيلسوف فيسير خارج سور المدينة ، متحررا من جدران بيوتها ومن سورها وافلاطون يحدد طريق الفيلسوف بقوله انه طريق طويل وان اتجاهه هو اولا الخروج من البيت والتحرر من جدرانه والخروج من المدينة والتحرر من سورها ، ثم السير الى سور المدينة ــ يصل الى السور ولكنه لا يدخل المدينة ــ والعودة من السور .

والقدماء بداوا بالنظر في الانسان ككائن مدني ، اي ككائن خاصته انه يعيش في المدينة ، وعيشه في المدينة اساس كيانه الانساني وسبب وجود جميع الاحوال التي تفرقه عن الكيان الحيواني ، فلولا المدينة لم توجد الحياة الاقتصادية ولم يوجد تقسيم العمل ، ولما وجدت الفنون والصناعات ، ولما وجدت العلوم ، ولما وجدت الفلسفة ذاتها . ولولا المدينة لم توجد الانسانية ، او ان الانسانية تؤدي حتما الى وجود المدينة والانسان ككائن مدني ، والانسان لا يوجد كفرد مستقل عن المدينة ، بل وجوده كانسان يحتم عليه وجوده كمواطن يقوم بواجباته ضمن المدينة ، اي يقوم بواجباته كمواطن ، ووجوده كمواطن فاضل هو الطريق الوحيد لوجوده كانسان فاضل .

ولكن هذا لا يعني انه لا فرق بين المواطن الفاضل والانسان الفاضل . لان القدماء عندما نظروا في المدينة وجدوا ان المدن عديدة ، وانها تختلف في سننها وسيرها وشرائعها ، وان بعضها اسوأ من البعض الاخر ، وان المواطن الصالح في مدينة صالحة قد لا يكون انسانا صالحا ، وان هناك درجات في صلاح الشرائع وكذلك في الفضائل التي تقررها هذه الشرائع .

وهذا ادى بهم الى ان يتساءلوا : هل يحصل الانسان على كماله الاخير في المدينة ؟ ولما وجدوا تعدد المدن واختلافها في درجات الكمال ، وان المدينة الفاضلة لاتوجد بالفعل ، تبين لهم ان المدن الموجودة بالفعل كلها ناقصة وان الانسان لا يبلغ كماله الاخير كمواطن في هذه المدن ، وتبين لهم ان المدينة مرحلة وسطى بين الوجود البهيمي والوجود الالاهي (البهائم والالهة لا تحتاج في وجودها الى المدن) . فالمدينة رفعت الانسان من وجوده البهيمي ولكنها عادة تمنعه من الحصول على كماله الاخير . وذلك لان المدينة تفرض على الانسان آراء وافعالا شرعتها ، وهذه الاراء والافعال غايتها عملية ، وفي هذا الاطار العملي يقضي الانسان حياته كمواطن يرى اراء مدينته ويفعل افعالها ، وهذا هو الذي رمز اليه افلاطون بالسور ، فلكل مدينة سور يحدد اراء مواطنيها وافعالهم .

ولما كانت الفلسفة عند القدماء هي الفحص عن كمال الانسان ، وهو فحص يبدا بالبحث عن هذا الكمال ، وغايته الحصول على هذا الكمال موجودا على قدر الامكان في الانسان وفي المدينة ، ولما كان هذا الكمال كمال النظر وكمال العمل ، ولما كانت اراء الانسان وافعاله مدنية ، بداوا بالنظر في هذه الاراء والافعال . ففحصوا عن المشهورات وعن اراء اهل مدينتهم عن الالهة والموجودات الالاهية والطبيعية والموجودات الطبيعية ، وعن افعال اهل مدينتهم وعن آرائهم التي يبنون عليها هذه الافعال : عن الخير وما هو الفعل الخير والانسان الخير ، وعن العدل وما هو الفعل العادل والانسان العادل ، وعن الشجاعة وما هو فعل الشجاع . ثم فحصوا عن طرق الفحص التي يتبعها اهل مدينتهم ويظنون انهم يصلون بها الى الحق مثل طريق الخطابة وطريق الشعر وطريق السفسطة والكلام .

ولما كانت الفلسفة هي البحث عن الحكمة ، ولما كان الطريق اليها هو طريق المحاورة والجدل ، وهذا يتطلب المحادثة مع المعارف والمبتدئين والاصدقاء ، ولما كان هؤلاء مدنيون واراء وافعال اكثرهم هي اراء وافعال مدينتهم ، ظهر ان طريق الفلسفة في البحث عن الحكمة هو طريق

مدني ، وان جنون الفيلسوف الناتج من محبة الحكمة يحتاج الى القصد والعدل كي يحصل الفيلسوف على اراء وافعال عادة ولكي يعبر عن هذه الاراء والافعال باقوال عادلة لا تظلم الحق ولا تقود العامة الى افعال ظالمة ، ولما كان العدل اما انسانيا او الاهيا ، ولما كان الفحص عن العدل الالاهي طريقة البحث عن العدل الانساني ، ولما كان العدل الانساني عدلا مدنيا ، ولما كانت العدالة هي روح المدينة واساسها ، راى القدماء من الالاهيين لكل هذا ايضا ان الفلسفة فعل مدني وان مبدأها وطريقها هي المدينة وقالوا ان طريق الطبيعيين هو طريق الجنون وان في بحثهم عن الامور الطبيعية واحتقارهم للامور الانسانية خطرا على الفلسفة والمدينة على السواء .

ثم نظروا في نظام المدينة فراوا انه يشمل عديدا من الاراء والافعال ، وبحثوا عن هذه الاراء والافعال فوجدوا انها اراء عن جميع الموجودات الالاهية والطبيعية كما ان الافعال هي افعال في جميع الاشياء الانسانية . وبالرغم من انهم وجدوا هذه الاراء اكثرها ظنون واعتقادات ووجدوا افعال اهل مدنهم ليست افعالا فاضلة الفضل على كماله تبين لهم ان هذه الاراء والافعال كاملة على وجه اخر : وهو انها كل كامل يحتوي على جميع الاشياء ، وان المدينة دائرة كاملة . ولما كان النظر في طبيعة الكل الطبيعي هو غاية الفلسفة ، ولما كانت المدينة تكون كلا صناعيا ، ولما كان هذا الكل الصناعي هو اقرب الينا من الكل الطبيعي – وهو العالم باكمله – راوا ان يبتدؤا من هذا الكل الصناعي القريب لانه خيال الكل الطبيعي البعيد ، وراوا ان طريق المبتدىء في الفلسفة يجب ان يبدأ بالنظر في هذا الكل الصناعي وادراك ما معنى الكل في الاول ثم النظر خلال هذا الكل المدني الى الكل الطبيعي . وذلك شبيه بالذي يريد معرفة شكل دائرة واسعة الكبر ولا يقدر بعد على المشي على محورها ، فنبدأ بخط دائرة صغيرة حوله ونجعله يمشي حولها ليرى ما معنى الدائرة ، ثم نوقفه في وسطها ونشير اليه ان ينظر في الافق ليرى محيط الدائرة الكبيرة .

ولما اعادوا النظر في هذا الكل المدني راوا انه يحوي نظاما يشبه نظام العالم : ففيه ما يشبه النظر والعمل ، وفيه الحاكم والمحكوم والخادم والمخدوم ، وفيه طبقات بعضها فوق بعض ، وفيه اعمال يكمل بعضها بعضا ، وفيه القوانين وفيه اجزاء لا تبلغ كمالها الا كاجزاء لهذا الكل . ولما وجدوا ان المدينة في نظامها تحاكي نظام الكون ، راوا ان مما يفيد الناظر في نظام الكون ان يبدأ بالنظر في نظام المدينة على شاكلة الطفل الذي يريد ان يركب حصانا فنعطيه حصانا من خشب لكي يتمرن عليه دون ان يحيطه الخطر الذي قد يأتيه من ركوب حصان طبيعي . والناظر في المدينة يرى مثلا كيف ان الخير العام لا يوجد في انسان بمفرده بل في جماعة مجتمعة وهكذا يسهل عليه أن يرى معنى كمال الكل الذي لا يوجد في الاجزاء وكيف ان الاجزاء لا تكمل الا كأجزاء في كل . وهذا هو الذي رمز اليه افلاطون بالطريق من المدينة الى خارج سورها .

وخروج الفيلسوف من سور المدينة يعني نظره في الكل الطبيعي والبحث عن الموجودات الالاهية والطبيعية كما هي وليس كما يراها اهل مدينته . ولما كانت اراء اهل المدن كلها ظنونا ومعتقدات قد تقرب من الحق وقد تضاده ، وكان الفيلسوف لا يقنع بالظنون والمعتقدات فقط ، ويبغي الحق سواء وافق اراء اهل مدينته او خالفها ، قام الخلاف بين اهل المدن ومحبي الحكمة الالاهية . وذلك لان المدن تخاف الذي يسير خارج سورها ويتحرر من ربقتها ولايرى آراءها ويغري ابناءها بالخروج من المدينة .

ولكن افلاطون لم يحدد عمل الفيلسوف بالخروج من المدينة (وان كانت الفلسفة غير ممكنة دون هذا السير عبر سور المدينة) ، ولكنه لما فحص عن الخير المحض وجد انه كالشمس يشع على جميع الموجودات ويبعث الخير فيها ، ولما كان على الفيلسوف ان يتشبه باعلى الموجودات عملا ، راى ان على الفيلسوف ان يرجع الى المدينة التي رمز لها بالكهف ويبعث الحق والخير فيها على قدر الامكان : وذلك بان يؤدب الطاغية ان وجد طاغية قادر على التادب وتعلم الفلسفة ، او يزيل الظلم والمرض عن المدينة على قدر الامكان كما يفعل القاضي والطبيب ، بان يصلح شرائعها ، او يحسن سيرتها .

ولكنه لما نظر مصير من يفعل ذلك – وما فعله الاثينيون في قتل سقراط الصالح – راى ان بين المدينة والفلسفة صراعا دائما ، وان الفلسفة في المدينة على خطر عظيم . وذلك لان معلمه وصديقه سقراط كان ابا الفلسفة المدنية ، فهو على المشهور اول من حول نظره من الاشياء الطبيعية الى الامور الانسانية ، ولم يقبل بطريق النظر والفحص الذي تبعه الطبيعيون واحتقارهم للامور الانسانية التي قالوا انها كلها عادات وتقاليد مصطنعة ليس لها اساس طبيعي . اما سقراط فتبع طريق فيثاغورس واحترم الامور الانسانية والشرائع والاراء والافعال المدنية ، ولم يقل انها كلها مصطنعة بل قال ان لها او لبعضها اساسا طبيعيا والاهيا ، وقال ان الامور الانسانية جزء من الكل وان الكل لا يعرف تمام المعرفة دون معرفة هذا الجزء ، وان لهذا الجزء مكانا خاصا في الكل الطبيعي كما ذكرناه لانه يشبه هذا الكل من وجوه عدة .
ولكن الاثينيين قتلوا سقراط وقالوا انه لم يرض عن آلهتهم وآلهة مدينتهم . وظاهر لمن ينظر في اراء سقراط وافعاله انه كان الاهيا لم يخرق سنن مدينته وشريعتها بل فضل الموت مسموما على ذلك .

وافلاطون لما راى ان الطبيعيين المحتقرين للمدن وشرائعها يعيشون في مأمن من المدينة ، وراى ان الالاهيين والفضلاء من الفلاسفة تقتلهم المدينة ، ولما كان يرى ان نظر الالاهيين في طبائع الاشياء هو النظر الصواب ، وان هذا النظر يجب ان يصان من نقمة الطغاة والدهماء ، تبين له ان على الفلسفة ان تبتكر طريقا تصون به ذاتها وحب الحكمة في المدن . ووجد ان هذا الطريق هو طريق الاقناع والخطابة ، وان على الفيلسوف ان يحصل على مقدرة اقناع الجمهور والمتكلمين . وهذا يعني ان على الفيلسوف ان يجمع بين طريق سقراط وطريق الخطيب . وطريق الخطابة هذا اصبح من آلات الحكمة . وذلك لانه لما كان واجب الحكيم ان يرجع الى الكهف ويصلح احوال مدينته ، وجب عليه ايضا ان يتعلم الفن الذي به يخاطب الجمهور وغير

الفلاسفة من عامة الناس .

والقدماء من فلاسفة اليونان لما نظروا في الاجتماع الانساني وجدوا ان غايته المدينة ، وان المدينة هي صورة الاجتماع الانساني ، وانها اعلى مراتب الاجتماع الانساني ، وانها الكل الذي يشتمل على اجزاء الاجتماع الانساني كمؤسسات المعاش والحياة الاقتصادية ومؤسسات العلم والفن ونواحي الحضارة الاخرى ومؤسسات الدين والطقوس الالاهية والشريعة ، وان ليس واحد من هذه او بعضها اعلى رتبة من المدينة .

والفلسفة عندهم بدأت من المدينة والاراء المدنية والصناعات المدنية والافعال المدنية ، ثم تحررت من سور المدينة ونظرت في كمال الانسان فرات ضرورة تركيب مدينة فاضلة بالقول يتحقق فيها كمال الانسان وينظر اليها الذي يريد اصلاح المدن . ثم نظروا في كيف يمكن تحقيق هذه المدينة بالفعل ، فوجدوا ان على الفلسفة ان توجد آراء وافعالا ادنى رتبة من آراء وافعال اهل المدينة الفاضلة يقدر على تصديقها والقيام بها اهل المدن اذا ارادوا اصلاح مدنهم . فالفلسفة عندهم كانت اسمى رتبة من المدينة ، والفلسفة هي التي تعطي اراء المدينة الفاضلة وافعالها ، وهي التي تعطي الاراء والافعال التي يجب على اهل المدن اتباعها ان ارادوا اصلاح انفسهم .

وفلسفة القدماء هذه هي التي ورثها المسلمون . وبدأ العلم المدني عند المسلمين كما بدا عند اليونان بالنظر في المدينة كما هي في الواقع وفي آرائها وافعالها . ولكن فلاسفة الاسلام لم يجدوا امامهم مدينة بالمعنى اليوناني (polis) ، فهذا الكيان السياسي انقرض او كاد في العصر الهليني وقامت مقامه الدول العظيمة التي تسيطر على مدن عدة ومساحات شاسعة من الاراضي . وفلاسفة الاسلام لما نظروا في الكيان السياسي الاسلامي وجدوا انه مكون ليس من مدينة بمعنى المصر او الحاضرة وانما من ملة كبرى تمتد على قسم كبير من الارض ، فدار الاسلام كانت دارا واسعة . ولكنهم لما فحصوا عن طبيعة هذه الملة وهذه الدار وجدوا انها ـ وان اختلفت في سعتها عن المدينة اليونانية ـ لم تختلف عنها في جوهرها ، ولذلك احتفظوا باسم المدينة واصبحت المدينة عندهم كناية عن الملة والملة اسما آخر للمدينة بمعنى الكيان السياسي .

وذلك لانهم وجدوا ان الملة الاسلامية ، كالمدينة اليونانية ، تتكون من آراء وافعال تقررها شريعة جامعة تقرر آراء اهل الملة وتقرر افعالهم : ايها واجب وايها مستحب وهكذا . ووجدوا ان هذه الشريعة ذات مصدر الاهي شرعت خلال انسان الاهي وغايتها مصلحة الفرد كجزء من الملة اي المصالح العامة ومصالح الكافة في الدنيا والاخرة ، وان هذه مصالح لا تركز على مصالح الدنيا في الوقت الحاضر وانما تقرر خير الانسان المستقبل وعلاقة الانسان بالله . فالخير الذي تقرره ليس خيرا انسانيا محضا وانما هو خير انساني ـ الاهي ، والعدل الذي تقرره ليس عدلا انسانيا محضا وانما هو عدل انساني ـ الاهي ، وغايتها ليس خير الجسد فقط بل خير الجسد والروح ، والفضائل التي على المؤمن ان يحصل عليها ليست الفضائل الانسانية فقط بل الفضائل الانسانية والالاهية معا .

ثم وجدوا ان الفضائل الانسانية والفضائل الالاهية وخير الجسد وخير الروح ومصالح الدنيا ومصالح الاخرة ، وان اختلفت ، لا تضاد بينها ولا توجد الواحدة مستقلة عن واخرى تقرر اراء الانسان وافعاله الاخروية المتسامية ، بل وافعالهم على ان الدنيا مطية الاخرة ومن فقد المطية فقد الوصول . ولذلك لم يجدوا في الملة الاسلامية مدينتين احداهما تقرر آراء الانسان وافعاله الدنيوية الطبيعية واخرى تقرر اراء الانسان وافعاله الاخروية المتسامية ، بل وجدوا ملة واحدة ومدينة واحدة تقرر خير الانسان ومصلحته في الدنيا والاخرة معا وترتب مصالح الانسان في الدارين معا .

وفيلسوف الاسلام الاول ، ابو نصر الفارابي ، لما نظر في الفلسفات التي اتت الينا من اليونانيين وفرق بينها ، وجد ان الفلسفة الحقة الصالحة هي فلسفة الالاهيين وهي فلسفة افلاطون وارسطوطاليس . وقرر ان هذه فلسفة واحدة على اختلاف افلاطون الالاهي عن ارسطوطاليس في طريق النظر في الامور الانسانية والطبيعية والالاهية . وبين ما هو هذا الاختلاف (وكيف ان فلسفة ارسطوطاليس لا تختلف عن فلسفة معلمه افلاطون في جوهرها) بعد ما بحث اجزاء الفلسفتين ومراتب اجزائهما في كتاب له سماه « فلسفة افلاطون وارسطوطاليس » . والفارابي بين في هذا الكتاب كيف ان افلاطون ركز نظره في الامور الانسانيه المدنية وبحث الامور الالاهية والطبيعية في اطار انساني مدني ، وكيف ان ارسطوطاليس ـ وان بحث في امور المنطق والامور الطبيعية بحثا مستقصى ـ لم يبلغ الكمال الذي بلغه افلاطون في بحث الامور الانسانية المدنية وفي بحث الامور الالاهية .

ثم لما استقصى البحث في سبب هذا الاختلاف ، تبين له ان الحكيم الالاهي افلاطون وجد ان التفريق بين الفلسفة العملية والفلسفة النظرية لا جدوى منه على تعليم المبتدئين ، وان طريق الفلسفة هو البحث عن الكل العملي ـ النظري ، وان هذا الطريق طويل لا نهاية له ما دمنا بشرا ولم نبلغ درجة الالوهية ، وان الحكمة النظرية لا تبلغ الكمال الا بكمال الحكمة العملية . وهذا يعني ان الفيلسوف لا يبلغ كمال الحكمة بالنظر في الامور الالاهية فقط ، بل عليه ان يرجع الى الكهف ويزاول الامور الانسانية اما كرئيس للمدينة واما كمصلح لامورها على قدر الامكان . ووجد ان ارسطوطاليس ، وان لم يخالف معلمه افلاطون في هذه الامور ، لم يبحثها كمعلمه بحثا مستقصى .

ثم ان الفارابي لما نظر في ملة الاسلام وجد ان افلاطون الالاهي ، وليس ارسطوطاليس ، هو الذي بين ما معنى الاراء الالاهية ، وذلك في كتابه طيماوس . وبين ما معنى الشريعة الالاهية والمشرع الالاهي وكيف ان الشريعة الالاهية تفضل الشريعة الانسانية والمشرع الالاهي يفضل المشرع الانساني، وكيف ان السنة الالاهية اقرب الى سنة المدينة الكاملة من السنن الانسانية ، وكيف ان على محب الحكمة ان يصلح شريعة مدينته لكي تصبح اكثر الاهية ، وكيف ان الفلسفة والمدينة الالاهية يجب ان تعيش في صحبة والفة ، وكيف

ان المتكلمين المرضاء يحاولون تجريم الفلسفة وتضليل العامة ، وكيف ان على الفيلسوف الحق ان يحافظ على الفلسفة والملة باستعمال طريق سقراط مع الخاصة في كتب البرهان ، والخطابة مع العامة ، والجدل مع المتكلمين .

ولكن الفارابي تعلم من افلاطون احسن ما تعلم كيف ان الفلسفة يجب ان تبقى خارج سور الملة ، وكيف ان على الفيلسوف ان يحصل على معرفة الملة الفاضلة ومراتب الملل الموجودة بالفعل بان يفحص عن النبوة والشريعة واراء الملة وافعالها . وهذا ادى الى شيء من الشك وسوء الفهم في ملة الاسلام ، لان بعض المتكلمين ظنوا ان الفلسفة عدوة للملة وان الفلاسفة لا يحترمون اراء الملة وشريعتها . وهذا غلط شائع بينه الامام ابن رشد « فصل المقال » واظهر فساده وخطره على الملة والفلسفة .

وذلك لان كل مدينة وملة ، بسبب سوء معرفتها لطبيعة الفلسفة وغاياتها ، تظن ان الفلسفة صناعة كالصنائع الاخر الموجودة في مدينة او ملة ما ، وانها جزء من تلك المدينة او الملة ، وانها يجب ان تخدم اراء الملة وافعالها وتبرهن على صحتها وعلى انها احسن الاراء والافعال او انها هي افضل الملل والملة الفاضلة على الاطلاق . والفلسفة لما كانت هي الفحص عن جميع الموجودات الالاهية والطبيعية والامور الانسانية ، والبحث عن الحق في طبيعة هذه الموجودات وهذه الامور سواء وافق هذا الحق اراء ملة ما وافعالها او خالفها ، وجب عليها ان تتحرر من جدران دار الملة وسورها والسير خلال ظنون اهل ملتها الى طلب المعرفة الحقة . ولكن اهل الملة ، او المتكلمين الذين يظنون انهم يدافعون عن عقائدها ، يخافون من الفلاسفة ويعتقدون انهم على ضلال في طلبهم للحق بالعقل والنظر في طبائع الاشياء على وجه يظنون انه غير الوجه الشرعي ، وهذا راي غير صائب لان الشرع ذاته يوجب نصا النظر في طبائع الاشياء وطلب الحق بالنظر العقلي .

ولكن الجهلاء والسفسطائيين والمتكلمين من اهل ملتنا ومن اهل ملة اليهود ومن اهل ملة النصارى ، الذين جهلوا طبيعة الشرائع ومعنى الفلسفة ، حاولوا استعمال الفلسفة والنظر العقلي في دفاعهم عن عقائد مللهم ، ثم ظنوا ان هذه هي غاية الفلسفة وسبب وجودها في الملل ، واتهموا الفلاسفة بالكفر والضلال . ومقابل هذه الصناعة الجدلية السفسطائية قام فلاسفة الاسلام كالفارابي وابن رشد وصححوا عقائد الملة وبينوا فساد اراء المتكلمين ، كما فعل ابن رشد في « تهافت التهافت » . وبسبب هذا الهجوم الضال المضلل على الفلسفة من قبل المتكلمين كانت وما زالت الفلسفة في ملتنا على خطر عظيم كما كانت في اثينا على عهد سقراط . وظاهر ان فلاسفة ملتنا لو ارادوا النجاة من الخطر والحصول على الشرف والاموال لفعلوا ما فعل المتكلمون . ولكنهم راوا ان ذلك يعني نهاية الفلسفة الحقة ونهاية البحث عن الحق ، فصمدوا في وجه المتكلمين والجهلاء وبينوا ضلالهم وجهلهم وحاولوا المحافظة على الفلسفة الحقة على ما كان في ذلك من الخطر على حياتهم ومن ربقة المتكلمين وثورة الدهماء عليهم وظلم الحاكمين لهم وفي صراعهم هذا نجحوا في المحافظة على الفلسفة الحقة في ملة الاسلام قرونا عديدة. ولما انتشر الجهل في الملة ولم تقدر على تحمل الفلسفة فضلوا ان يبقوا فلاسفة اخيارا ويتحملوا ظلم الظالمين من ان يضحوا بالفلسفة ويصبحوا متكلمين . وان كان هذا ادى الى انقراض الفلسفة من اغلب ديار الاسلام ، فالاصلح ان تنقرض الفلسفة في زمان ومكان ما وتنتظر من يحييها في مكان وزمان اخر من ان تحول الى طريق الجدل والسفسطة لتخدم ملة ما خوفا من اهل تلك الملة .

وهكذا بقيت الفلسفة الحقة والمدن والملل الموجودة بالفعل في صراع دائم . فالمدينة او الملة تحاول ان تجعل من الفلسفة آلة مدنية تخدم بها اغراض المدينة وتدافع عن آرائها وافعالها سواء كانت هذه الاراء والافعال حقة او باطلة ، والفلسفة تحاول ان تتحرر من سور المدينة وتبحث عن الحق وتصلح امور المدن والملل بان تقودها في طريق الحق . وهذا هو الذي بينه افلاطون احسن بيان في محاوراته ووسائله ، وتبعه في ذلك الفارابي . وفي هذا الصراع فائدة للملة والفلسفة معا . وذلك لان الملة تتعلم من الفلسفة انها لم تبلغ بعد الكمال وانها ليست الغرض الاقصى من وجود الانسان وان كمال الانسان لا يتحقق فيها الا اذا سارت في طريق الحق الذي تفحص عنه الفلسفة وقربت من المدينة الفاضلة التي بينتها الفلسفة ، والفلسفة ترى انها ليست صناعة مدنية لا غير وترى الخطر الذي يحيط بها اذا تحولت الى صناعة مدنية تدافع عن عقائد المدينة او الملة لا غير . والفلسفة لا تقدر على نفع الملة الا اذا بقيت خارج سورها وتبعت طريق الحق . فالفلسفة الحقة هي التي تبقى في صراع دائم مع الملل الموجودة بالفعل .

اما عند اكثر المحدثين من فلاسفة الغرب فعلاقة الفلسفة بالملة لم تعد هذه العلاقة الصحيحة . وذلك لانهم لم يتبعوا طريق الالاهيين من فلاسفة اليونان بل تبعوا طريق الطبيعيين . ولما نظروا في الامور الانسانية لم يروا فائدة من معرفة المدينة الفاضلة والخير والعدل الالاهيين ، بل حددوا بحثهم في المدن والملل الموجودة بالفعل ، وهذا أدى الى نشوء علوم اجتماعية انكرت فائدة الفلسفة وطريقها، وفائدة النظر في طبائع الاشياء الانسانية واسبابها، وركزت البحث على ما هو موجود في ملة ما وفي زمان ما ومكان ما. وهذا أدى الى نكران امكان التحرر من اراء الملة وعقائدها ، اي ان كل علم ومعرفة انسانية لا بد ان تعيش داخل مدينة او ملة ما وتستعمل اراءها وظنونها مبادىء للبحث العلمي. فسارت هذه العلوم داخل اسوار المدن وهي مصفدة بجدران بيوتها ومحاطة بسورها ومدافعة عن ارائها . وبقاؤها ، في اساسها الفلسفي، داخل الجدران والاسوار ادى الى مرضها

وهذه العلاقة الخاطئة بين الفلسفة والمدينة اوجدها الذين ثاروا على القدماء في القرن السابع عشر وطبعوا الفلسفة بطابع المدينة ، اي جعلوا منها آلة تخدم المدينة ، وغايات الانسان المدنية ، واغراض الانسان الدنيوية عامة ، وتسخير الانسان للطبيعة لاغراضه المدنية خاصة .والقدماء لم يعارضوا في هذا لان فيه مسخا للفلسفة فقط ، بل لانه خطر عظيم على المدن قد يؤدي الى هلاكها .

بغداد

محسن مهدي

تحية ايها الربيع

مهداة الى شعراء لبنان

*

أنجديني من الهوى بشفيع   راح يوم اللقا وفاضت دموعي

يصبر القلب للمعاد ولكن   ما الذي يرتجى لغير رجوع

يسكر العطر فالازاهير نشوى   وأراها ترنحت في الزروع

زار طيف الحبيب احلام عمر   واثنى مثله بلا توديع

عند برد الضفاف جال خيالي   يتراءى وغاب في الينبوع

غاب في الماء نرجسي ، وضفافي   أطلعته في لهفتي وولوعي

نبتة نحن للحياة صبونا   ونشقنا النسيم فيض ضلوع

ما رعانا الوجود مثل الاجبا   ورعانا الوجود مثل القطيع

لا تعيد السنون ذاتي فروحي   بلسم ما يزال ملء جذوعي

يسأم الحب تحت اسوار قلب   ويفك الحصار فك خضوع

انا سبحت للاله على الخضراء   وازددت لهفة للبديع

وأفاقت في الدوح جوقة تغريد   تحيي الصباح عند الطلوع

وترامت شمس الضحى للندايا   تتمنى هبوب كل ضجيع

ترقص الروح كالفراش وتطفو   بجناح على مهب الربوع

هتف الروض انه موسم الخلد   ونفح الهوى وعهد الربيع

هو كالخاطر الحنون وديع   مر في العرق وانتهى في الفروع

خاطر للرياض كان رفيعا   ألهم الزهر بالكلام الرفيع

دمشق   زكي المحاسني

مقدمة الطبعة الانجليزية بقلم تانكوك

جيرمينال

مترجمة عن الانجليزية بقلم سليمان موسى

كتب اندريه جيد في مذكراته بتاريخ ١٠ آب ١٩٣٢ يقول « انني اطالع جيرمينال(١) للمرة الثالثة (او الرابعة) وهي تبدو لي اكثر روعة وجمالا مما كانت عليه قبلا » . ولقد اختار اندريه جيد هذه الرواية من بين احسن عشر روايات في اللغة الفرنسية .

ولا بد ان نذكر من جهة اخرى ، ان ملاحظات كثيرة ظهرت عن هذه الرواية (وعن روايات كثيرة اخرى من تاليف زولا) فقيل انها فجة تخلو من العقدة ، مبسطة اكثر من اللازم وبانها بدائية وبعيدة عن الواقع في معالجتها النفسانية ... بل وصفت باوصاف كثيرة اخرى لا تسر . ويقال لنا ان الصورة التي ترسمهاالرواية هيبهيمية ومهينة لكرامة الآدميين ، وان عباراتها فظة فاحشة واسلوبها تكراري وتاكيدي . بل ان اولئك المغرمين بالتحليلات النفسانية لم يعجزوا عن العثور بين مادتها الجنسية العنيفة على اصول ترجع الى احوال زولا النفسانية والجسمانية .

ومن المؤسف ان يعمد كثير من النقاد المحترفين الى استنفاد لوذعيتهم في ايضاح الكيفية التي كان يحسن بالفنان انتهاجها كيينتج عملا اكثر روعة ، وكيف كان بمقدوره ان يتصرف في فنه الادبي على صورة لم يقصدها اصلا . ويبدو ان النقاد من هذا الطراز ينسون ان وظيفة الناقد ليست في ابداء الاقتراحات فيما كان يمكن ان يحدث ، بل هي في المحاولة المدعومة بالصبر وبعد النظر لاكتشاف مقاصد الفنان ، ثم لتقدير مبلغ ما احرز من نجاح في تحقيق قصده . وان توجيه الاتهامات لرواية جيرمينال بانها فظة العبارات فاحشة الموضوع – لهو عمل في غير موضعه المناسب ، كأن نلوم مثلا مؤلف رواية« اليس في ارض الاحلام» (٢) لانه تجنب حقائق الحياة القاسية في انجلترا الصناعية خلال القرن التاسع عشر .

ومن حسن الحظ ان مذكرات زولا لم تدع مجالا للشك في حقيقة مقاصده ، اذ قال :

« لاجل الحصول على التأثير اللازم ، يجب ان ارسم الفروق بينجانبي الموضوعبوضوح تام ، بل يجب ان امضي في تحقيق ذلك الى اقصى طاقة ممكنة . وعلى هذا يجب ان ابدا بسرد الويلات والمصائب التي ترهق كواهل عمال المنجم ، ذاكرا الحقائق لا المعاذير العاطفية . يجب ان يظهر العامل مهينا ، جائعا ، ضحية الجهل ، يقاسي مع اطفاله في جهنم دنيوية – ولكن لا يجب ان يبدو مضطهدا ، لان المسؤولين لا ينتقمون منه لغاية الانتقام بالذات – انه بكل بساطة يرزح مغلوبا على امره بسبب النظم الاجتماعية السائدة .. وخلافا لهذا فيجب ان ارسم المسؤولين كجماعة عطوفين ما دامت مصالحهم المباشرة سليمة غير مهددة . ان العامل هو ضحية الحقائق الراهنة – : رأس المال ، المنافسة، الازمات الصناعية ... »

ولا يمكن ان يوجد ايضاح افضل من هذا : التأثيرات العريضة ، ابراز المشكلة الاجتماعية بكل ما فيها من فجاجة. ثم محاولة الحياد القائم على نظرية ان الذنب ليس ذنب احد الطرفين لهذا الوضع اليائس الذي ينبع من صميم الطبع البشري ، وما يتبعه من مأساة الحياة ذاتها . لان جيرمينال فصل من قصة النزاع المفجع بين راس المال والعمل ، بل هي مأساة باضيق ما في هذا التعبير من معنى . فالدراما تلعب دورها في اطار مغلق لا سبيل للفرار منه فتستعبد بذلك جميع ابطالها تدريجيا . والواقع ان المسؤولية لاتقع على احد بعينه . لان النظام القائم يطغي على اصحاب الاعمال كما يطغي على العمال . ولكن اذا نحن وضعنا جيرمينال في موضعها الطبيعي استطعنا ان نفهم مقاصد المؤلف بصورة افضل .

لقد ظهرت الطبعة الاولى لجيرمينال عام ١٨٨٥،وكانت هي الرواية الثالثة عشر من سلسلة روايات كبرى عددها عشرين . خصص اميل زولا خمسة وعشرين عاما من حياته لانجازها . ولقد بدأ يؤلف رواية « حياة روجون » قبل اعلان الحرب الفرنسية البروسية في ١٨٧٠ ، ثم فرغ من تأليف « الدكتور باسكال » في ١٨٩٣ . اما عنوان السلسلة الكامل فهو : روجون – ماكارت . التاريخ الطبيعي والاجتماعي لهذه العائلة في ظلال الامبراطورية الثانية (امبراطورية نابليون الثالث) ومن هذا العنوان نستطيع ان نفهم غرض زولا المزدوج : ان يدرس تأثير الوراثة والمحيط على افراد عائلة من العائلات . واذ كان زولا متحمسا للنظريات العلمية السائدة في عصره ، فانه خالف نهج الادباء السابقين وجعل رواياته تدور حول محور التصميم النفساني ، بدلا من محور الاقدار الالهية او البشرية الذي كانت تدور عليه الاداب القديمة . ومن الان وصاعدا اخذ يخضع مصير الانسان لما يرث من دماء وجهاز عصبي . ويحتمل ان تجري تعديلات على ذلك المحيط بسبب المحيط – مركزه الاجتماعي وعمله اليومي – ولكن لا يمكن ان ينجو من مصيره المحتوم في النهاية . وكان زولا يعلن ان الروائي في العصر الحديث يجب ان يكون علميا كأي انسان اخر ، وذلك بان يلاحظ تقلبات الاحوال بنظرة تجريبية . فالعالم في مختبره يسكب المواد المختلفة في اوعية مناسبة (وهو المحيط) وبعد ذلك لا يلعب دورا شخصيا بل يتراجع ويكتفي بملاحظة التقلبات التي تحدث .. وعلى هذا فان الروائي المثقف ثقافة علمية يتصرف بالطريقة ذاتها ، فهو يأتي بتشكيلات من النماذج البشرية ، فيعرف بتكوينها الوراثي ، ثم يضم تلك التشكيلات في اطار (محيط) مناسب . ثم يسجل ملاحظاته بحياد تام حول ما يجب ان يحدث لاولئك الاشخاص كما تشترط القواعد العلمية . وينتج عن نظرية « الرواية التجريبية » هذه – كما يدعوها زولا – ان الروائي – وهو الملاحظ العلمي للمجتمع الراهن – (لان الرواية التاريخية لا تعد علمية بسبب انها عمل تصويري خيالي) لا يمكن ان يعد مسؤولا من ناحية

---

(١) هي المقدمة التي كتبها تانكوك لرواية جيرمينال ونشرت ترجمته لها من الفرنسية الى الانجليزية . ولقد ترجمت هذه الرواية لحساب دارالنشر والتوزيع بعمان ، وينتظر ان تصدر طبعتها الاولى قريبا . وقد اختارها للترجمة عبد الرحمن الكردي .

(٢) من اشهر القصص الانجليزية . تاليف لويس كارول .

اخلاقية عما يحدث في روايته ، كما لا يمكن ان يعد الكيمائي مسؤولا عما يحدث للمواد التي سكبها في انبوب التجارب. وبالاضافة الى هذا ، فاذا كانت مهمته ان « يلاحظ » كائنات مريضة او فاسدة في مجتمع متعفن ، فواجبه يقتضيه ان يسجل كل ما يلاحظ بامانة ، ولا يمكن في هذه الحال ان يتهم بفساد الذوق ، او بالفحشاء والقذارة اكثر مما يمكن أن نتهم طبيبا عندما يعري جسد انسان ما كي يتفحص بثوره ويشخص علته .

وشرع اميل زولا عام ١٨٦٨ ـ وقد حدد اهدافه ووسائله كما تقدم ـ يزود نفسه بالمعلومات اللازمة ، فاخذ يطالع جميع الكتب الطبية والعلمية التي استطاع العثور عليها ، ثم اخذ يسجل ملاحظاته عن الاحوال المعيشية المختلفة ، اذ يمكن تفحص شؤون المهن الرئيسية والطبقات بين الجماعات من سياسية او دينية او فنية او غيرها ـ اذا جعلنا اعضاء عائلة كبيرة مختلفة الوشائج يبحثون عن وسائل العيش بطرق مختلفة ، فيحقق بعضهم مركزا مرموقا في المجتمع بينما يفشل البعض الاخر . ولم يكن هذا المشروع العظيم مقصورا على تتبع التطورات الوراثية . بل انه تعدى ذلك الى اعطاء صورة علمية كاملة بالاسانيد عن المستويات المختلفة للمجتمع في فرنسا خلال الامبراطورية الثانية . فلنتعرف الان على اعضاء هذه العائلة الذين لهم علاقة بالمؤثرات الوراثية والمحيطية التي فعلت فعلها ببطل رواية جيرمينال المدعو اتيان لانتير .

ان الام الكبرى لهذه العائلة كلها هي اديلاد فوك المعروفة بالعمة دايد . وقد ولدت في القرن الثامن عشر وهي الجدة الكبرى لاتيان . وكانت اديلاد مخلوقة عاطفية هستيرية ، ادت بها طباعها الضعيفة المتحللة في اخر الامر الى النزول في المارستان، حيث قضت ما تبقى لها من اعوام ثم ماتت بعد ان بلغت المئة ، وبعد ان شهدت بعينيها انفعالات وحماقات انسالها الكثيرين . وعاشت اديلاد في بروفنس حيث قضى زولا اعوام طفولته وصباه . وتزوجت روجون وهو مزارع غليظ محب للعمل ، ولكن سرعان ما فقدته بعد مولد ابنهما بيير روجون . ولم تلبث بعد ذلك ان منحت نفسها لرجل يدعى ماكارت وهو مهرب سكير فظ الطباع ، ورزقت من هذه العلاقة الغير الشرعية طفلا اسمه انطوان وطفلة اسمها ارسولا . ومن هنا بدأ فرعا العائلة : الفرع الشرعي وهو روجون ، والفرع اللقيط وهو ماكارت . وكان جميع افراد العائلة يشتركون في صفة واحدة وهي القابلية العنيفة والشهية الجامحة للتملك والاستمتاع الى اقصى الحدود بما في هذا العالم من متع . ولكن بينما كان ابناء روجون أذكياء يتدفقون بالحيوية ويلاقون النجاح في الحياة بالطرق الشريفة في اغلب الاحيان ـ كان ابناء ماكارت : سكيرين يحبون العنف ، متطرفين ، مجرمين ، معتوهين واحيانا فنانين وعباقرة . وتضطرب قصة العائلة اضطرابا جديدا عندما يتلاقى الفرعان مرة اخرى بالزواج ، وينشأ من هذه الزيجة ثلاثة اطفال .

اما انطوان ما كارت ، الذي ولد من علاقة اديلاد بالمهرب عام ١٧٨٩ ، فقد انتظم اولا في سلك الجندية ثم احترف الاحتيال والخداع ، وعاش حتى بلغ من العمر عتيا في نواحي بلاسان دون ان يؤدي عملا او يبذل مجهودا ، لانه كان يعرف جميع التفاصيل المتعلقة بنجاح اخيه من امه بيير روجون . ذلك النجاح الذي رفعه الى مركز اجتماعي مرموق وجعله ذا ثروة طائلة ونفوذ كبير . وكان هو وزوجته مدمنين على الشراب ادمانا مزمنا . وكانت ابنتهما الثانية جرفاس المولودة عام ١٨٢٨، اشد الافراد في مجموعة الروايات كلها اثارة للعواطف ، وقد ورثت ضعف والديها وادمانهما للخمور . وفي الرابعة عشرة من عمرها انجبت طفلا اسمه كلود من علاقتها بشاب مليح يدعى لانتير . ثم انجبت طفلين اخرين جاكيز واتيان (المولود عام ١٨٤٦) . وعندما توفيت والدة لانتير في ١٨٥١ قام هذا باصطحاب جرفاس وولديها كلود واتيان الى باريس . ولكن بعد ان انفق الثروة التي ورثها عن امه، سارع الى هجرانها واولادها وانصرف الى معاشرة امراة اخرى . واحترفت جرفاس مهنة الغسيل . وكان من المحتمل ان تنجح في مهنتها هذه لو لم تتزوج عاملا يدعى كوبو انهمك في تعاطي الخمور بينما كان في دور النقاهة من حادث اصيب فيه . ولم تستطع مقاومة هذا الاغراء بسبب ضعفها الموروث فاغرقت بدورها في تعاطي الخمور وماتت تاعسة بائسة (رواية زولا : المصيدة ـ L'Assommoir وصار كلود ، اخو اتيان ، فنانا عبقريا ثم انتحر في نوبة من نوبات القنوط . ومن المحتمل ان يكون زولا قد صور شخصية كلود على مثال صديق طفولته سيزان (العمل L'Œuvre) . اما الاخ الثالث جاكيز ، الذي بقي في بلاسان ، فقد صار سائق قاطرة ومعتوها سفاكا (الوحش الآدمي La Bête humaine) بينما كانت اختهم (من ابيهم) آنا كوبو ، المدعوة نانا ،والتي نشأت في باريس في محيط مضطرب بين الفواحش والشراب ـ قد انصرفت في اول فرصة اتيحت لها ، الى مغادرة منزل ابويها واتخاذ البغاء مهنة لها (نانا Nana). اما بطل هذه الرواية اتيان ، فانه عالم بقوى الوراثة الفظيعة، وهو يحاول دائما ان يتحكم في ارادته ، ويتغلب على رغبته في سفك الدماء . وهو اقل افراد عائلته شذوذا .

هذه خلاصة التاريخ « الطبيعي » لعائلة اتيان لانتير . وهذا التاريخ ليس على قدر عظيم من الاهمية ، اذ لن تفقد جيرمينال قيمتها حتى لو لم يسمع القارىء باسم روجون او ماكارت ، لان اتيان لا يزيد عن كونه صورة ادبية ، ووجهة نظر فريدة . نحن نعلم ان غرض زولا هو دراسة الموضوع كله ، ليس موضوع مناجم الفحم في شمالي فرنسا فحسب ، ولكن موضوع الطبقة العاملة ، والصراع بين راس المال والعمل ، وقيمة الحلول والعلاجات المختلفة التي تعرضها المنظمات العمالية والاحزاب السياسية ، ولهذا اقتضت الضرورة عليه ان يخلق شاهد عيان من طبقة العمال بالذات كي يعرض حياة عمال المناجم الداخلية على حقيقتها . ولكن لكي يتيح لهذا الشاهد ان يرى بمنظار جديد حتى يستطيع تقدير الشقاء والظلم بشيء من الاستقلال وبشعور المقارنة والتفضيل ، فانه يجب ان يدخل على هذه الحياة دخولا جديدا وان يملك من الذكاء والثقافة ما يكفيه للاشفاق على زملائه الجهلة ، والفصل في منازعاتهم ثم قيادتهم في النهاية . ومن هنا ينشأ البناء البديع لهذا الكتاب . ان اتيان يصل الى مونتزو مفلسا لا يعرف اي شيء عن اعمال المناجم . ويحصل على عمل بسيط ويبدأ بتعلم هذه المهنة من اول درجات السلم . وينفق زولا احد عشر فصلا ـ ما يعادل ثلث الكتاب ـ في الحديث عن اليوم

الاول الذي يقضيه اتيان في مجتمع عمال المناجم ، وينجح في تعريف القارىء تعريفا جيدا بفتحات المناجم ، واحوال العمل ، والمحيط المعاشي الذي يضطرب فيه عمال المناجم وافراد عائلاتهم ، والعادات الاجتماعية لهذه المنطقة . بينما يستمر خلال ذلك في ادخال عناصر جديدة تمثل النواحي المختلفة لحياةعامل المنجم ، وفي التحدثعن جميع المؤثرات التي تفعل فعلها في حياته .

وليست الصورة جميلة اطلاقا ، فلا يقف الامر عند استغلال جهد العمال وقلة اجورهم ، مما يجعل امراضهم العادية الموضعية تزداد وبالا بسبب سوء التغذية ، ويجعل حياة الزوجات والامهات شقية بالخوف من الديون – بل يشمل ذلك احوال السكن الرديئة وازدحام الافراد في المنازل ، وانعدام اية هواية من هوايات الترفيه مما لايترك مجالا لاولئك التعساء للترفيه عن انفسهم الا في مجالات المعاشرة الجنسية واحتساء الخمور . اما الكنيسة فهي تقف صراحة اما في الجانب الذي يوجد فيه الطعام الدسم والعشرة الانيقة ، فتقابل شقاء الناس بعدم الاكتراث كما كان يفعل الاب جوار – او ان تقف في الجانب الاخر حيث وقف الاب رانفير فتعمل على تسخير ذلك الشقاء لخدمة رغائبها. اما الاحسان فيتجه في معظم الاحوال وجهةخاطئة فانت تجد اناسا طيبين مثل آل جريجوار يوزعون الاطعمة والملابس لا على اكثر الفقراء احتياجا بل على اكثرهم اجادة في التظاهر ، كآل بيرون الذين نجد كثيرا من امثالهم في حياتنا ، بكل ما يظهرون بـه من مظاهر « الاحترام » و « الاستحقاق » المزيفة .

هل يمكن ان تقبل هذه الشكوى الفظيعة على حالها ؟ هل كان زولا عادلا حقا ؟ الم يتخذ من الاطار الخيالي لقصة روجون – ماكارت ، ذريعة لادماج الموضوع مع مناهج الفوضوية الضاربة كي يوهم قراءه في ١٨٨٥ ان جرمينال هي صورة صادقة لصناعة المناجم في ذلك العهد ؟ الم يكن يمثل الخدعة القديمة ، خدعة المخرب السياسي والاجتماعي: التي تتمثل في رسم صورة فظيعة بشعة للمظالم السابقة وفي السكوت عن القول بان تلك المظالم قد اصلحتوسويت ونحن لا نشك انه كان الى حد ما اسير الحدود التي فرضها على نفسه ، ثم ان الاحداث الفعلية لم تكن رحيمة . لقد عزم قبل عام ١٨٧٠ على كتابة سلسلة طويلة من الدراسات للمجتمع الفرنسي في عهد الامبراطوريةالثانية، اي لدراسة المجتمع المعاصر ، وكان زولا مثل الكثيرين من زملائه الادباء معارضا لانانية ذلك العهد الرجعية . ولكن قبل ان ينشر اول اجزاء السلسلة « حياة روجون » فان الحرب الفرنسية البروسية دفعت نابليون الثالث الى المنفى ، وصارت الامبراطورية الثانية حدثا من احداث التاريخ . وهكذا فان زولا لم يعد يكتب روايات عن الحياة المعاصرة بل روايات تاريخية ، لا تتحدث عن تنظيم موجود راهن بل تشرح جثة هامدة . وهكذا قضى ثلاثة وعشرين عاما وهو يبحث في احوال مجتمع انتهى – نظريا على الاقل – في عام ١٨٧٠ . ونتج عن هذه المسألة نتائج بالغة الاهمية . ومن الواضحان انهيار فرنسا عام ١٨٧٠ اعطى زولا المشهد الختامي الرائع الذي كانت تتطلبه مقتضيات الفن ونظرياته الاجتماعية ، واغتنم هو الفرصة فكتب رواية من اعظم روايات الحروب العالمية (الانهيار La Débâcle) ١٨٩٢ . ولكن هذا المشهد الختامي جاء في وقت مبكر جدا مما سبب حرجا لزولا ، فاضطر ان يضغط جميع انسال هذه العائلة الكبيرة في حيز زمني قصير لا يزيد عن ثمانية عشر عاما ، وهو الوقت الزمني الذي عاشته الامبراطورية الثانية (١٨٥٢ – ١٨٧٠) ونتج عن هذا ان بعض الازمنة والاعمار في سلسلة الروايات هذه ، كانت صورية الى ابعد الحدود ، ثم انك تجد اعمار بعض ابطاله ممتلئة امتلاء شديدا . فان نانا – على سبيل المثال – تبهر رواد قاعات الموسيقى ، ثم تغدو اكثر غانيات باريس امتلاكا للقلوب ، ثم تكون سببا في افساد وتدمير نصف الطبقة النبيلة ، ثم تتسبب في احاطة العائلات المالكة بالشبهات ، وهي تسافر اسفارا بعيدة . وتصير من كبار المساهمين في خيول السبق ، واخيرا تموتمحطمة عليلة في احدى غرف الفنادق في الوقت الذي تبدأ فيه حرب ١٨٧٠ . اما عمرها بحسب شجرة الانساب فهو ثمانية عشر عاما لا غير !

ولكن معترضا لن يعترض على هذا الاختصار الزمني لولا ان زولا يبالغ الى اقصى الحدود في اتباع طريقتهالعلمية وهناك نتائج اكثر خطورة : فان انهيار الامبراطورية الثانية قضى على خطر الرقابة السياسية والاجراءات القضائية بالنسبة للكتاب المناوئين (قضى فكتور هيجو اعوام الامبراطورية الثانية في المنفى) . وابيحت الحرية لكتاب الجناح اليساري للافصاح عما يدور بخلدهم . فمن يستطيع مقاومة الاغراء في الاخذ ببعض ثأره ، لا يمكن ان يقاوم زولا ذلك الاغراء . ففدت صوره للامبراطورية الثانية صورا اشتراكية في مراميها ، بل هي شكوى رجعية من مجتمع بغيض اكثر مما هي صورة واقعية عادلة . وفضلا عن هذا فان زولا اكتشف ان موضوعاته الاجتماعية غدت اقل اهمية من انهيار الامبراطورية ، فكان من الضروري ان يلقحها بما يثير الاهتمام . ونفذ هذا باضافة مادة غزيرة ذات طبيعة فظة او شهوانية ، حتى اشتهرت رواياته في العالم بانها « قوية » و « جريئة » – هذا من جهة ، اما من جهة اخرى ، فقد اخذ يعالج المشاكل والاحوال الحاضرة بمزيد من الصراحة . وهو يجازف بذلك في تجاوز المدى الزمني . فمثلا في رواية (على شرف السيدات (Au Bonheur des Dames)) ١٨٨٣ ، وموضوعها يدور حول تطوير المتاجر – اخذ يصف وسائل الاعلانات وطرق عرض البضائع بصورة سابقة لاوانها ولما عرف الناس في ذلك العهد الذي يفترض ان تحدث فيه وقائع الرواية . واذا اردنا ان ننظر الى هذه القضية بعين الصدق والسياسي والاجتماعي ، فاننا نلاحظ الخطأ في تقديم مزيج من الماضي والحاضر للقارىء السليم النية ، وفي عرض احوال كانت سائدة قبل عشرين عاما ثم انقطعت ، او في شرح نظريات لم تكن معلومة قبل عشرين عاما .

وهذا ما يحدث في جيرمينال . ان الاحداث تبدأ في ١٨٦٧ استنادا الى سن اتيان وشجرة النسب . وبناء على هذا فان زولا يصور حياة المناجم صورة قاتمة حافلة بالشقاء الذي تعانيه النساء والاطفال وهم يعملون كالدواب وهو في ذات الوقت يستنكف عن الاشارة الى ان هذه الاحوال قد تبدلت ، وهو يجعل الازمة الصناعية العامة التي تسيطر على تصرفات مجلس ادارة مونتزو – تعتمد على عوامل عالمية مختلفة ، كالانقلاب الذي حدث في السوق

الامريكية مما لم يكن قد تحقق عام ١٨٦٧ . اما الفوضوي الخيالي سوفارين ، الذي تقوم مبادؤه على التدمير الشامل كبداية ضرورية لانشاء مجتمع جديد ، سوفارين الحاقد على الامية ، بقنابله ومتفجراته ـ فهو شخصية مستمدة من باكونين وكروباتكين ، ومن الاحداث الفوضوية المختلفة التي حدثت في العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر وبلغت ذروتها في مقتل الكسندر الثاني عام ١٨٨١ . وان الصورة العامة لحوادث مونتزو تشمل مظالم كثيرة صار تعديلها في التطورات الاشتراكية التي لم تكن معروفة في ١٨٦٧ . ان الرواية ملحمة بطولية رائعة للشقاء البشري ولثورة المظلومين ، ولكننا لا نستطيع القول بانها صورة صادقة واقعية لاحداث وقعت في أي زمن .

لو كان هذا كل ما في الامر ، فان جيرمينال تكون نشرة سياسية عادية تحتوي على انصاف الحقائق ، وعلى تهويلات وتبسيطات نشاهد كثيرا مثلها في اعمال الدعاية. انها لا تكون عملا فنيا ، فالعمل الفني يجب ان يحتوي على بعض الحقائق الانسانية الاساسية . فلا يكفي ان يصنع الفنان عددا من الدمى لترقص على لحن سياسي معين . وقد نقول ان جيرمينال مأساة (تراجيديا) وفي المأساة نرى ان لجانبي الصراع قدرا معلوما من التبرير ، بل نرى ان كل جانب منهما يؤمن باحقيته وعدالة قضيته . ان زولا غير مهتم باظهار نظرية له عن اتحادات العمال او الاشتراكية فقط ، بل هو مهتم بالطبيعة البشرية ، بالصراع بين المصالح الشخصية، بالدوافع الفريزيةالتي تهدف للكسب والمحافظة على النفس ـ تلك النوازع التي تكمن وراء تصرفات الناس والتي يتجاهلها كثير من اصحاب النظريات السياسية. وكما قال فاليري « كل سياسة تنحو الى اعتبار الناس اشياء جامدة » . على ان زولا لا يقع في تلك المصيدة ، وهو لا يترك المجال لاجتهاداته السياسية لتعميه عن الحقائق النفسانية وعن الشعور بالعدالة . ان الصراع في مونتزو ليس فقط ثورة عمال مظلومين والجهاد ضد اصحاب العمل من الظالمين الاشرار ، لان الحياة لا تكون سهلة بسيطة كهذا الا في خطب الخطباء في حديقة هايدبارك . ان جميع هؤلاء الناس يعيشون في ظل نظام لا يستطيعون السيطرة عليه ، ثم ان نوازع الجميع ليست خالية من الغرض الشخصي . وهناك جانبان للسؤال الكامن وراء اضراب شغيلة مونتزو ـ طريقة دفع الاجور عن التدعيم ، فعمال المناجم يصرون على نظام للاجور يقوم على الجهد الفردي ، واسباب اصرارهم واضحة . وهذا يعني ان الوقت الذي ينفقونه في تدعيم الجوانب التي يقتطعون منها الفحم هو اضاعة للنقود التي قد يكسبونها اذا قضوا ذات الوقت في اقتطاع الفحم ، وعلى هذا فهم يتجاهلون القيام بالتدعيم المركز في معظم الاحوال . ومن هنا تحدث الانهيارات المخيفة وفقدان الكثيرين لحياتهم . ومن هنا ايضا نشأت المحاولات الصارمة لايجادنظام للاجوريقسر العمال على التدعيم المركز حفظا لسلامتهم الشخصية . ولكن العمال لا يرغبون في تضحية اوقاتهم على هذه الصورة الخاسرة ، وهكذا يستمر الوضع متأرجحا . ويختلف زولا عن بعض انصار الضعفاء ، فهو يرى ان الكسل وسوء النية والرذيلة ليست وقفا على الاغنياء وعلى اصحاب رؤوس الاموال والاعمال فحسب وهو كذلك يرى ان العمال ليسوا فوق مستوى النقد . ومهما كانت الاوضاع او نوعية الحكم السياسي ، فانه يفترض في اية مجموعة عمالية ان تضم اشخاصا لا اباليين يعيشون في الفسق والرذيلة كعائلة ليفاك ، كما تضم اشخاصا يتظاهرون بالذل بينما يعمرون منازلهم ويحصلون دائما على افضل نصيب كعائلة بيرون . ولا تخلو نفوس المتزعمين الذين يقودون زملاءهم من نوازع مماثلة كان يحاول بعضهم ان يخلب لب احدى الفتيات ، او كان يرغب في الارتقاء فوق وضعه الراهن (اتيان) . او كان تعمر فؤاده الغيرة من متزعمين آخرين اكثر نجاحا مضافا اليها حاجة اغراء الزبائن لورود الملهى (راسينور) . او كان يتخذ المرء منها مهنة مريحة مثل بلوشارت الذي يعيش ـ بصفته مندوبا ـ حياة مرحة ويرتدي ملابس انيقة ويشارك في المؤتمرات وحفلات الغداء والعشاء والرحلات الخطابية دون ان يدفع فلسا واحدا من النفقات ودون ان يؤدي ساعة عمل امينة . ولن تجد واحدا من هؤلاء الناس ـ كما تذكرنا بذلك حكاية صانعي القبعات في مرسيليا ـ لا يبادر اذا ربح قيمة اليانصيب ، الى استثمار امواله دون ابطاء والانضمام الى زمرة الراسماليين . واذ ان العمال ليسوا ملائكة قطعا فكذلك اصحاب الاعمال ليسوا ابالسة . اننا نشاهد رجلا مثل هنبيو تسحق قلبه الهموم الشخصية الفظيعة، ويعتمد في عيشه على تنفيذ سياسة مجلس الادارة . ونرى دنلين يواجه الفقر والاذلال ، لقد انفق كل ما يملك في اعدادمنجمه على احدث الطرق ، ونرى عماله يحترمونه ويحبونه ، ولكن ذلك لا يغني عنه شيئا . انهم جميعا ضحايا تلك القوة الرابضة البعيدة ، كما يقول زولا ، كانها آلة خبيث ماكر في هيكل يستحيل اختراقه . ان الاحزان العظيمة ـ مأساة الالم من الحياة ذاتها ـ تقهر كل هؤلاء الناس المساكين الذين يشقون كأن الالهة تعبث بمقدراتهم . ومن الاهمية ان نلاحظ المهندس نجرل ، وهو الشخص اللاابالي الشجاع ، زير النساء ، والذي تصوره لنا فصول الكتاب الاخيرة انسانا غير اناني ـ يكتشف انسانيته ذاتها من خلال عذاب الاخرين . وهنا تجد المغزى الاخلاقي البسيط للكتاب : ان نجرل يبذل اقصى الجهود ليلا نهارا كي ينقذ حياة عدوه اتيان . وعندما ينجح في ذلك نرى ذينك الرجلين يتأبطان بعضهما وتنهمر دموعهما سويا .

الانسانية ، اذا ، هي البطل الحقيقي في جيرمينال . ولقد بلغ زولا قمة النجاح في تلك الصفحات التي صور فيها حياة الجمهور : سواء نرى الناس يستمتعون بعطلة العيد ، او يتجولون في انحاء الريف بحثا عن الخبز ، او يأخذون بثأرهم الفظيع من الالات او الناس الاخرين (فان تصوير انتقام النسوة من ميجرات يعد من اشهر صفحات الادب هولا وفظاعة) . او عندما تراهم يفرون مذعورين امام بنادق الجنود . وكما قال مستر انجوس ولسون «ربما لن تجد في كتاب اخر ما تجد في هذا الكتاب ، حيث رسمت المشاهد الجماعية بحذق ومهارة ، وحيث عرضت عواطف وافكار الناس البسطاء الذين اضطرتهم المعاملة الوحشية الى الدفاع عن انفسهم بصورة وحشية ايضا . »

الاردن ـ المفرق سليمان موسى

الماضي الذي لا ينام

وأظل اذكرُ قريتي والاصدقاءْ
والشيخ يزرعُ صامتا ، حتى المساء
والجارة العرجاءُ ، تحرسها السماء
تسقي زروع الكرم لا تشكو عناء

والحي يغلي بالصغارِ
تواكبوا للتسليه
وشباب ضيعتنا ، مشواه..
يتحادثون بذكر تلك الراعيه
تلك التي هربت
وعافت قومها ، والماشيه ..
حيث المدينة ، والنقود ...

وتكوّم الرجل العتيق ،
ومال نحو الداليه
بسعاله ، قطع الهدوء
ونام فوق الداليه ..
وخطرن في غنج
.. واحداهنّ تعرج حافيه
والساقيه ..
ضحكت لهن وتمتمت :« يا ناريه »
واذِ الشبابُ ...
فحملقوا.. وتبسموا.. وتغامزوا..

وأظل اذكر بيتنا
في المنحنى ..
وبأننا ..
كنا صغارا يوم ذاك

نلهو ، ونركض ضاحكين ..
عبر المزارع ، والحقول ...
وامام بستانِ الدوالْ
والكل كانوا سائرين ...
مالت عليّ رفيقتي
كالحب يأكل قريتي ..
كالنور يملأ غرفتي ..
كالشمس تمسح جبهتي ..
وهمستُ انشد غايتي ..
فتوقفتْ ..
ووقفتُ انظر ..
يا جارتي ليلى ــ فديتكِ
هل سنكبر ؟
وتشب مثل أخي واختكِ
هل سنكبر ؟
فتبسّمت
وجرت ، تداعب وجهها نسم رقيقه
كالطير يقفز فوق اغصان الحديقه
وتقول في همس حقيقه
سوف نكبر ...

واظل اذكر قريتي والاصدقاء
والشيخ يزرع صامتا ، حتى المساء
والجارة العرجاء ــ تحرسها السماء
ورفيقتي ...

اللاذقية **خالد الشريقي**

تدبير المنزل كمهنة

من الامور الهامة في حياة المجتمع، العناية بحياة الاسرة، لانها نواته التي تحمل عناصر نضوجه وتقدمه، وعليها يتوقف مصير المدنية ذاتها. ففي الاسرة يتخرج المواطن الذي يكون صالحا او غير صالح للنشاط الاجتماعي، والاسهام في المجهود الحضاري الذي بفضله تحيا الانسانية وتستديم اطراد تقدمها وارتقائها. وتعظم اهمية هذه العناية بالنسبة لشعوب الشرق الاوسط بنوع خاص، حيث ما برحت هذه الشعوب في المراحل الاولى من تطور النضج الاجتماعي، وحيث تتضافر مع هذا العامل ظروف مادية واجتماعية اقليمية على تقوية الحاجة الى تثقيف المراة والنهوض بها، لتكون مصدرا حيويا فعالا للنهضة الاجتماعية. لذا، كان تعميم التعليم لتدبير المنزل ضرورة من الضرورات القصوى في هذه المنطقة من العالم.

وتدبير المنزل كمهنة مسألة ذات طائفتين من المنافع. فهو فضلا عن فائدته العامة العائدة الى حياة الاسرة ومن ثم المجتمع باكمله، يؤمن للمراة التي تحترفه العمل الذي تستطيع ان تتقنه اكثر من سواها بحكم كونه ممثلا لرسالتها الطبيعية الاساسية.

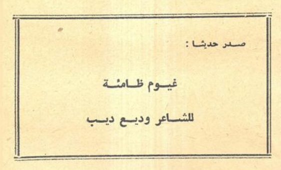
اما من الوجهة العامة فالمراة هي خير من يقوم بمهمة تعليم التدبير المنزلي. صحيح ان هناك بين الرجل والمراة وحدة في الجوهر اثبتتها الاديان والشرائع والفلسفات المتعددة، ولكن هذه الوحدة لا تحول دون اعتبار وجود اختلاف في التكوين يجعل من الرجل والمراة كائنين يكمل احدهما الاخر، ويقضي بان يوكل امر التربية المنزلية الى المراة بصورة رئيسية. فلقد ثبت من الناحية البيولوجية انه اذا كان ذكاء المراة اضيق مدى واقل انسجاما مع التفكير المجرد الخالص من ذكاء الرجل، فانه اكثر مرونة ودقة، واشد قابلية لمهنة التربية والدرس. كما انه لئن كانت الارادة عند المراة اقل عنفا وجراة منها عند الرجل، غير انها اشد صلابة وثباتا. واما من الناحية العاطفية، فان الوجدان عند المراة اكثر نماءا ودقة ورقة، واشد تبكيرا في الظهور منه عند الرجل. ولقد عني « اوغست كونت » بتأكيد هذه الظاهرة وابرازها بالادلة. وهذه الظاهرة بالذات تدعونا في الواقع الى اعتبارها ظاهرة تفوق لا نقص، على شرط ان يكون نموها في النمو الروحي وليس في مجال الانفعالات البدائية المرتبطة بالوظائف الفيزيولوجية، وان يخضع هذا النمو لثقافة ذهنية رفيعة.

فهذه الصفات تفسر لنا ما اجمع عليه علماء النفس من ان المراة هي « مربية بالفطرة »، وانها افضل من يتولى اعباء التربية لبنات جنسها بنوع خاص، بحيث انها حين تحترف مهنة تعليم التدبير المنزلي تستطيع ان تقدم للمجتمع فائدة تفوق الفائدة التي قد يقدمها الرجل في هذا المضمار، اذ ان هذه المهنة تخصها مباشرة وتشكل الرسالة التي القتها الطبيعة ذاتها على عاتقها.

واما من الوجهة الخاصة، فتعليم التدبير المنزلي عنصر هام من عناصر الثقافة، يتمتع بتأثير كبير في التربية العامة. فمن الخطأ الشديد ان نتصور هذا التعليم على انه يتناول فقط الشؤون الفنية في حياة الاسرة، من غير ان يتجاوزها الى الشؤون الفكرية والاخلاقية. فان غايته الاساسية هي ان يخلق الحب للاسرة، وان ينشىء في النفس تذوقا للتنظيم الحسن لحياة المنزل. حقا ان هذا التعليم يتضمن تعليم الخياطة والتفصيل الصحيح ورفو الثياب ونحوها من الشؤون الفنية الضرورية، ولكنه في الواقع لا يقف عند هذه الامور، بل يرقى منها الى ما هو روحي صميم؛ انه يهدف في الاساس الى التدريب على التربية السوية للاطفال، بمراقبة تطورهم الذهني وتوجيهه وبالعمل على تنمية الذوق لديهم والتمرس على حب النظام واحساس الجمال. فاول درس في الاخلاق يتلقاه الطفل عن ابويه، هو الدرس الذي يقدمانه له عن طريق الاشياء المحيطة به، فالمنزل اطار من الحياة ينبغي ان يساعد على منح البهجة والسعادة لقاطنيه، سواء بتربيته ونظامه وزينته، ام بنوع الاثاث الموجود فيه، لان هذه الحاجيات هي في الحقيقة بمثابة اصدقاء للاشخاص الذين يعايشونها ثم ان هذا التعليم يرمي كذلك الى تأمين التفهم الصحيح للحياة الزوجية، اذ ان الرجل لا يحتاج فقط الى بيت والى شريكة لحياته جديرة به وقادرة على فهم اعماله ودعم نشاطه ومشاركته اعباءه والانسجام معه في مشاغله العليا ولكنه في حاجة ايضا الى ان تكون زوجته اما قادرة على رعاية شؤون اولادها في طور نضجهم الذهني ومتابعتها حتى دخولهم الى ميدان الحياة.

من هنا نلمس اهمية تعليم التدبير المنزلي للمراة، ولنذكر ان خير من يتقن مهمة ما، هو الذي تكون هذه المهمة عائدة لشخصه ولمنفعته هو بالذات. ولذا، يتسنى لنا القول ان تعليم التدبير المنزلي مهنة اساسية تقوم في مركز التقاء فروع الثقافة العاملة على رقي المجتمع ونهضته.

آمنة عضاضة



قصة لسومرست موم

ترجمة حسن السعران

النملة والصرار

عندما كنت صبيا صغيرا ، كانوا يلقنوننا عن ظهر قلب بضعة خرافات (امثال) معينة من « لافونتين » . وكانوا يشرحون لنا كذلك بعناية المغزى او العظة التي تهدف اليها . وكان من بين تلك الخرافات التي حفظتها واحدة عنوانها « النملة والصرار » . وهي حكاية يقصد منها ان يعي الصغار الدرس النافع المفيد ، من انه في دنيانا التي لا تخلو من النقائص والعيوب ، للاجتهاد جزاؤه وللتكاسل عقابه . (واعتذر لسرد شيء لعل الجميع يعرفونه بصورة مجملة) . فالنملة في تلك الخرافة تقضي الصيف تجمع في داب وجد مئونتها وزادها استعدادا للشتاء . على حين يقضي الصرار الصيف لاهيا يتغنى فوق عيدان العشب الاخضر وينعم بالدعة والدفء والشمس . وما يأتي الشتاء حتى تكون النملة راضية النفس مطمئنة بذخيرتها ، بينما الصرار خالي الوفاض ليس في مأواه شيء . فيمضي الى النملة يشكو الجوع ويستجديها بعض الزاد ، فتخيب امله وتجيبه أجابتها الكلاسيكية :

— وكيف قضيت ايام الصيف ؟

— كنت اشدو واغني هانئا .

— ان تكن غنيت طوال الصيف ، فارقص الان كما تشاء .

وانا شخصيا لم استطع وقتئذ ان ارتضي ذلك الدرس او اقبله . ولست اعزو هذا لضلال او عناد من ناحيتي ، ولكن لعلها الطفولة تعجز عن استيعاب المعاني الخلقية . ولذلك وجدتني اعطف على الصرار ، ولم تكن عيني تقع آنئذ على نملة دون ان ادوسها واسحقها بقدمي . ولست اقصد هنا من وراء هذه المجالة التعبير عن عدم موافقتي لاتخاذ الحيطة والحذر او قلة الاكتراث بالمثل السليمة

هذه هي الخرافة التي مرت بخاطري يوم التقيت بجورج رامزي وهو يتناول غداءه وحده في احد المطاعم . فما رايت قط احدا متجهم الوجه في مثل سحنته الكئيبة الحزينة . كان يزوغ ببصره في الفضاء كأنه يحمل على كتفيه عبء الدنيا كلها . واسفت لحاله ، واعتقدت ان اخاه الخائب قد جر عليه الهموم والمتاعب مرة اخرى . فاتجهت اليه وصافحته قائلا : كيف حالك ؟

فأجابني : لست راضي النفس .

فسألته : اهو بسبب توم ، ايضا .

فتنهد وقال : نعم انه هو .

فقلت له : ولم لا تتجاهله وتنبذه ، لقد بذلت له غاية ما في وسعك وعليك ان تدرك الان انه ميئوس منه ولا خير فيه .

واظن ان كل عائلة تبتلي احيانا بشاة سوداء . وهذا توم ، كان في العشرين السنة الاخيرة تجربة موجعة مريرة لعائلته . مع انه استهل حياته بصفحة طيبة اذ انخرط في ميدان الاعمال كما تزوج وانجب من زوجته طفلين . وكان آل رامزي من الناس الموقرين ، والدلائل جميعا تشير الى ان حياة توم رامزي ستسير على خير ما يرام وانها ستكون حياة مجدية ، وان عمله سيكون شريفا مرضيا . ولكنه اعلن في ذات يوم على غرة ودون سابق انذار بانه ليس ميالا للعمل وانه غير اهل للزواج او الابوة. وهو انما يتوق للاستمتاع بالحياة . وضرب عرض الحائط بنصح الاهل والاصدقاء . ثم هجر زوجته وترك مكتبه ، وراح يتنقل طوال عامين بالقليل الذي معه من مال بين ربوع اوربا وعواصمها .

وبلغ القيل والقال اهله وافراد عائلته ، وترامت اليهم الاشاعات المشينة عنه وعن آثامه التي كانت تروعهم وتصدمهم . ولا شك انه كان يقضي وقته يترع كئوس المتعة واللذة ، وكان الاهل يتعجبون لحاله ويتساءلون عما عسى يحدث عندما ينفد ماله . وسرعان ما جاءهم الجواب : ذلك انه اخذ يقترض . وكان مستهترا لطيفا . ولست شخصيا اعرف مثله احد يرفض المرء اقراضه او يخيب له املا . وقد استطاع توم ان يحصل من اصدقائه على دخل منتظم ، ومثله يجد الاصدقاء بسهولة ويسر . ومن غريب ما كان يردده على الدوام قوله : ان ما ينفقه المرء من مال على ضروريات الحياة يبعث في النفس السأم ، وعلى النقيض من ذلك يجد المرء لذة ومتعة فيما ينفقه على الكماليات والملذات . ومن هنا كان يعتمد على اخيه جورج ، ولا يبدد لطفه معه عبثا . غير ان جورج من الرجال الجامدين الجادين الذين لا يتأثرون بمعسول الكلام وقد استمع الى وعود توم بضع مرات ، وعوده باصلاح شانه وحاله . ولهذا اعطاه مبالغ كبيرة لكي يستطيع النهوض من كبوته وبدء حياته من جديد . ولكن توم اشترى بالمال سيارة وقدرا من الحلى البديعة . واخيرا نفض جورج يده من اخيه فقد تبين انه لا سبيل الى اصلاحه ولا رجاء فيه . وانه لن يستقيم له عود او يستقر له قرار . ولم يحجم

توم بعدئذ ـ دون وخز من ضمير ـ عن الايقاع باخيه . ولم يكن مما يسر او يشرف جورج المحامي الموقر ان يرى اخاه يعمل في خدمة رواد النادي الذي يتردد عليه ، يمزج للزوار كئوس الكوكتيل في البار او يسرع الى عتبة النادي يفتح لهم عربات التاكسي . وكان توم يقول لاخيه بان العمل في ناد محترم من الاعمال الشريفة التي لا غبار عليها . ولكنه صونا لكرامة العائلة يستطيع التخلي عن مثل تلك الاعمال اذا جاد عليه بمائتي جنيه . وطبعا نفحه جورج المبلغ الذي يريده .

ومما ازعج جورج ان توم كاد ان يدخل السجن في ذات مرة . والواقع ان توم كثيرا ما تورط في امور مشينة ولكنه لم يهو الى مثل ذلك الدرك السحيق من قبل . وعلى الرغم من كونهمتعطلا مستهترا انانيافانهلم يندفع من قبل الى ارتكاب اية فعلة غير شريفة ، او كما يسميها جورج فعلة غير شرعية يعاقب عليها القانون ويعد مرتكبها مذنبااذاهو قدمالى المحاكمة. وعلى اية حال لا يسع المرء التخلي عن اخيه الوحيد لكي يزج به في السجن . لقد خدع توم رجلا يدعى كرنشوه ، وهو حقود منتقم صمم على رفع الامر للقضاء مدعيا ان توم سافل عديم الشرف يستحقالعقاب. وقد كلفت هذه القضية جورج جهدا مضنيا وشيكا بمبلغ خمسمائة جنيه لتصفيتها وديا مع كرنشوه .

ولم ار جورج غاضبا ساخطا مثلما رأيته وقد بلغه فيما بعد ان توم وذلك المدعو كرنشوه سافرا سويا الى مونت كارلو بعد استلام الشيك مباشرة ، حيث امضيا في مرابعها شهرا سعيدا ممتعا !

ان توم ظل عشرين سنة وهويقامر ويراهن في سباقات الخيل وينازل الفانيات ويراقصهن ، يتردد على افخم المطاعم ويرتدي احسن الثياب ، ويبدو دائما نظيفا حسن الطلعة كأنه خارج من فاترينة اذا جاز لنا التعبير. ومع انه في السادسة والاربعين من عمره الا ان المرء يحسبهابن الخامسة والثلاثين . وعلى الرغم من كونه شخصا لا يرتجى منه خير ، فقد كان رفيقا انيسا حلو الحديث ينعم المرء بمجلسه وصحبته . وانا شخصيا لم انقم عليه او اغضب منه بسبب ما كان يقترضه مني في الحين بعد الحين لسد نفقاته الضرورية التي تحفظ عليه وجوده . فما كنت اعطيه شيئا الا واشعر بانني مدين له ولست بدائن . كان توم رالزي يعرف كثيرين، وكثيرون يعرفونه . ولو ان المرء لا يرضى عن افعاله ، غير انه لا يسعه الا حبه .

مسكين جورج تحسبه في الستين من عمره مع انه لا يكبر اخاه الضال المستهتر بغير عام واحد فقط . فهو لم ينعم باجازة طوال ربع قرن بكامله اللهم الا عطلة اسبوعين فقط . كان يواظب على عمله يوميا ، فيذهب الى مكتبه كل صباح في التاسعة ولايغادره الا في السادسة مساء . يعمل في جد واجتهاد وفي شرف واستقامة . له زوجة طيبة لم يخنها قط ولم تخطر له خيانتها حتى على بال . وله منها اربع بنات هو لهن مثال الاب البار الرحيم . وقد دبر امور حياته ومعيشته على اساس اقتصاد ثلث دخله بانتظام . وكان يستهدف بذلك اعتزال العمل عند بلوغه الخامسة والخمسين والانتقال الى بيت ريفي صغير يقضي وقته في العناية بحديقته وممارسة رياضة الجولف . وكانت صفحة حياته نقية بيضاء لا غبار عليها . وقد سره ان الزمن يمضي وانه يزداد عمرا وان توم يكبر ايضا. وكثيرا ما كان يردد وهو يفرك يديه قائلا : « كل شيء جميل طالما توم في شبابه واناقة مظهره ، ولكنه لا يصغرني بغير عام واحد . ولن تمضي اربع سنوات حتى يبلغ الخمسين من عمره. ويومئذ لن يجد الحياة سهلة يسيرة . واما انا فسيكون ما ادخرته نحو ثلاثين الف جنيه . خمسة وعشرون سنة وانا اقول ان توم لا بد سيهوي الى الحضيض ، وسنرى كم يسره سوء المصير الذي ارتضاه لنفسه ، سنرى اذا كان العمل يجازى صاحبه حقا ام التكاسل والبطالة .

مسكين جورج ! انني ارثي لحاله ، واراني أتعجب الان وانا اجلس الى جواره بالمطعم ، اي خطب جلل جناه توم، ذلك ان جورج يبدوجد ساخط مهموم النفس .

سألني جورج : أتعرف ما جرى ؟

وتوقعتان اسمعمنه اعظم مصيبة، وخطر لي ان توم ربما قد اعتقله البوليس اخيرا ، وتمالك جورج اعصابه في كثير من الجهد ثم اخذ يقول :

أظنك لا تنكر انني واظبت طوال حياتي دون انقطاع على عملي الشريف ولم أحد عن طريق الاستقامة ، وانه بوسعي ان اتطلع الى التقاعد بعد حياة من الكد والادخار . وفي الامكان ان اعيش على دخل بسيط حياة مأمونة ولكن بقدر وحساب . وقد قمت على احسن وجه مستطاع بواجباتي في هذه الحياة حيث وضعتني مشيئة المولى وارادته .

فعلقت على قوله بالايجاب .

فاستطرد جورج يقول : واظنك لا تنكر ايضا ان توم كان عاطلا ،ساقطا خسيسا غارقا في ملذاته الى اذنيه . ومن العدالة ان ينتهي به الحال الى مشغل للفقراء :

قلت : صحيح

واحتقن وجه جورج وعلته حمرة بادية :

« ولكن منذ بضعة اسابيع عقدت خطوبته الى عجوز في عمر امه . وقد ماتت اليوم فخلفت له كافة ممتلكاتها: نصف مليون جنيه ، وزورق للنزهة ، وبيت في لندن واخر في الريف . »

وهوى جورج رامزي بقبضة يده على المائدة قائلا :

« أهذه عدالة . أهذه عدالة . لعنة الله على هذه الدنيا ! »

اما انا فلم استطع كتمان ضحكي . فما ان لمحت وجه جورج الحانق المغيظ حتى انفجرت ضاحكا ودرت بمقعدي وكدت ان استلقي على الارض من شدة الضحك. ولم يغفرلي جورج هذا . ولكن توم كثيرا ما يدعوني الى بيته الجميل في « ماي فير »لتناول عشاء فاخر . واحيانا يستدين مني مبلغا تافها لا يذكر وذلك بدافع العادة ، ولكنه على كل حال لا يزيد عن الجنيه الواحد .

حسن السعران

وداد سكاكيني والابداع الفني

بقلم فاضل السباعي

زارت حلب ، اواخر اذار الماضي ، السيدة وداد سكاكيني بدعوة من دار الكتب الوطنية . ولقد اذكرتني ، وهي تحاضر باسلوبها المشرق بمجموعتها « الستار المرفوع » التي صدرت في سلسلة « الكتاب الذهبي » لشهر مايو ١٩٥٥ بالقاهرة ولا يغرب عن البال ما لاديبتنا من منزلة في عالم القصة ، في سوريا وفي العالم العربي بعامة ، فانها تقف، في الحق ، في الطليعة ان نحن شئنا ان نعدد ادباء القصة الرواد .

وتمتاز اقاصيص السيدة وداد بالحرية في اختيار الموضوع . انها لا تلتزم قيدا يوهن قلمها ويحد من انطلاقة فنها ويجعل ادبها مثقلا بالتكلف مشحونا بالافتعال ، كما تفشى ذلك ، في الزمن الاخير ؛ في ادب المنادين بهذا القيد او ذاك . ولكن بحسبها ان تراود خاطرها الفكرة ، فتعيش تجربتها مستانية ، ثم تصوغها بما عرف عنها من اسلوب ممتع جذاب .

ولما كانت قد سلخت شطرا من حياتها الادبية في عاصمة العرب والادب ، فقد اوحت اليها البيئة القاهرية السخية باضمومة من اقاصيص انتظمتها «الستار المرفوع» التي نرجو ان يتاح لنا الان وفاؤها بعض حقها من الدرس والعناية . وانا لنحسب ان القارىء الذي يغيب عن علمه سورية الكاتبة ، لظانها ، من خلال قراءته هذه المجموعة، مصرية الجنسية . فالاقاصيص كلها ، خلا اثنتين ، مصرية المستوحى والنجار ، وذلك ، ان كان له ثمة من دلالة ، فعلى ان شعوب العرب في مختلف امصارهم انما يصدرون عن امة واحدة تشدها ، الى جوار آصرة اللغة ، اواصر التقاليد والاحاسيس والتجاوب الوجداني .

ولقد رأينا الكاتبة تسمو الى غاية الفن كلما تدانت من بنت جنسها ، حواء ، تستقطب افكارها وتسترصد مشاعرها . وكأننا بالمؤلفة قد فطنت الى ميدانها ، فاذا هي توجه جل طاقتها الى استكناه دخائل بطلاتها . وان عشرا من اقاصيص المجموعة السبع عشرة ، تنفرد بمعالجة مشكلات لها الف وشيجة بحياة المراة والمراة وحدها

انظر الى هذا الحرمان الذي تعاني وطأته بطلة « عاشقة النيل » تلك الصبية العانس التي بدأ يميل شبابها الى زوال : « .. كان النيل سلواها على بلواها ، وهل ابتليت باقسى من فوات الزواج ، وقد سارعت عربته العاجلة التي لم تقف لها ، وكانت تحمل لداتها وصواحبها عرائس بين سنة وسنة ، وهي مرتقبة على مثل النار شاخصة البصر الى وجه النصيب الذي لم يطلع عليها من وراء الغيب ولا من خلف الافاق ، واين الطارق ؟ و لا طارق ..» . ان الكاتبة – كانثى – تستطيع بحسها الفطري ، كما لا يستطيع الرجل ، ان تدرس – مثلا – مشكلة هرب الفتاة من المجتمع وانطوائها على ذاتها ، وكذلك الدوافع النفسية التي قد تدفع الانثى الى ان تغوي الرجال، وحاجة المراة الى الزواج : صبية عزباء او ارملة في سن الكهولة ، ومشكلة خيانة او ازورار الزوجة عن زوجها ، ومسالة الاسعاد الزوجي ... انها مشكلات من صميم حياة المراة معلقة ترقب الدراسات بخاصة ، ولقد طرقت بابها اديبتنا وولجت ساحتها واعطت من الحلول ما واتتها به الفطرة السليمة والموهبة والثقافة .

ولسنا ندري على التحقيق ما اذا كان قليل ام كثير من المغالاة في مثل قولنا : وانه ليعوزها احيانا الصدق في الرواية اذا هي تجاوزت نطاق المراة . فهي – مثلا – تقول ، في قصة « سيدنا الجنيد » – ذلك التونسي الذي آب من حرب فلسطين الى القاهرة ليفتتح دكانا يبيع فيها الكتب – : ولما قامت ثورة المغرب « اشتد عزمه على اللحاق باخوانه المجاهدين .. فنادى مبروكا (أجيره) . ووهب له دكانه بما فيها ..» فهبة الدكان بما فيها لاجير امر غير طبيعي في مثل الملابسات التي رسمتها لنا المؤلفة ، وانه ليبدو في الحق غريبا كل هذا الكرم من رجل جهد في ان يفتتح لنفسه دكانا بعد سنتين قضاهما بائعا للكتب يصففها الى جانب الحديقة العامة ، ثم أليس الاولى ان يبيع «الجنيد» محتوى الدكان ويحتمل الثمن الى قومه المجاهدين الذين عزم على اللحاق بهم وهم احوج الى المال في حربهم مع المستعمر الذي لا يعوزه المال ؟ . وكذلك تمضي المؤلفة تصف لنا كناسا في « الدينار الابكم » : « كانوا يسارعون اليه بصفائح الزبالة ، فيكبها وينبشها لعله يجد فيها شيئا ، ثم يلملم منها قوارير فارغة وفتاتا من الخبز الابيض كان يفوت الخدم ، فيقضمه عبد العاطي (الكناس) بلذة وحسرة ، وما كان يذوقه الا من تلك الصفائح او من الفضلات .. ، فان خبز عبد العاطي كان اسمر يشتريه حينا بائتا وحينا يجود به عليه بعض الكرام ممن يكنس امام بيوتهم » ! نحن نفهم ان يلتقط كناس شيئا من كومة الزبالة ان كان ذا قيمة ، اما ان ينبش الزبالة على هذه الشاكلة ، ويلملم فتات الخبز الابيض ، ويكون خبزه دائما اسمر بائتا ، فتلك صورة تجعلنا بازاء شحاذ لا كناس ، ونعتقد بان هناك – اياما كان من ضنك الاثنين – فارقا بينهما، وانما الحرص على وصف سوء حال الكناس هو الذي ساق الكاتبة الى ان تبالغ في تصويره فخلعت عليه سحنة الشحاذ .

على الاضطراب – في زعمنا – قد ساد بعض قصص المجموعة في شطرها الثاني ، ونخص بالذكر : «عين الشيطان » « السوار » و « اللحن المحطوم » . فانها قصص تبدو خالية من عناصر الابداع المبثوثة في سائر قصص المجموعة والتي لا يشق على القارىء ان يتحسس بذائقته جمال معانيها . ف « اللحن المحطوم »، قصة

ذلك الانسان الولهان الذي لا نرى لتولهه ، الذي بلغ حد الموت ، الارهاصات السائغة المقنعة . فـ « ولي الدين » يتعلق بمطربة شامية تنهد الى القاهرة يوما ، وقد كانت تغني بصوتها العذب : « ميلي ما مال الهوا .. » ، ويسترعي انتباهها بهدوئه بين النظارة ، فتستطلبه ، وقد حسبت فيه الغنى ، الاغنيات التي يحب ، فما كان يطلب الا « ميلي ما مال الهوا .. » .. وتعود حسيبة المغنية الى ديارها ، وولي الدين طوال سنتين لا يفتر عن ذكراها ، حتى يصيبه الذهول ، فيقترح عليه اخوه ان يلحق بها الى ديار الشام . فاذا هي قد تزوجت . فيعودان . وبعدها لا يرى للعاشق سوى الزواج منقذا له من الوله والذهول ، ولكنه يقضي ايامه الى جوار الحاكي الذي لا يفتأ يردد على مسمعيه الاغنية الحبيبة وفي يده الكاس المترعة يعب منها من غير حساب. ثم ... « مات ولي الدين بعد مرض وبيل » أرايت الى هذا السيل من الاحداث : اضطراب وغلو وفراغ من المعاني التي عودتنا الكاتبة ان نقع عليها في قصصها الاخرى ! وان « السوار » و « عين الشيطان » تستويان و « اللحن المحطوم » في هذا المضمار . وكم كنا نحب لو خلت المجموعة من مثل هذه القصص التي تفسد على القارىء استمتاعه وتلذذه بما ورد فيها من قصص تتطاول الى ذروة الابداع .

فـ « العود المسحور » ، قصة « اسطورية » الفكرة ، « واقعية » الرداء ، مفعمة انسانية . مغنية موهوبة تقتل يوما في بستان ، وتدفن في جذع شجرة .. فاذا الشجرة يسمع لها نغم كلما حفت فيها الاوراق وتيبس بعد اعوام ، فتقتلع ، وتباع في السوق خشبا ، يصنع منه « عود » اذا ضرب عليه فكأن « في صداه عزيف الجن » .. ان حس الكاتبة الانساني لم يشأ للمغنية التي اغتيلت ان يضيع بددا دمها الموار الذي كان يحياحب النغم وتتلاشى روحها الهائمة في سماوات الفن ، فخلعت هذه الخصائص الانسانية على ما هو غير انساني .. جسدت الدم الزكي والروح الفنانة في نبات ، في شجرة وارفة .. بل ، لقد لازمت الخصائص الشجرة حتى بعد يباسها ، فاذا هي تنبعث اصداء في العود .. في « العود المسحور » .

و « كؤوس العارفين » ، قصة شعبنا الطيب بذهنيته المستقصية الساذجة احيانا ، قرأت « الحاجة وصفية » في هامش « دلائل الخيرات » عبارة : (كؤوس العارفين) فغاصت تفكر في حل هذا « اللغز » ، فلما اعياها التفكير لاذت بصاحبتها « الشيخة نعمات » تطلب عندها الخبر اليقين ، فما حلته هذه لها ، وانما انشغلت به الاخرى وراحت تستفتي اقاربها من ذوي العلم ، فما اصابت لبغيتها متحققا ، ولما عادت الى صديقتها الحاجة انبأتها هذه انها قد وجدت الحل ، ثم قامت تغلي ماء بين يديها في ابريق على موقد صغير وكفتت فيه شيئا اسود ، ثم صبته في كأسين صغيرتين في كل منهما قطعة بيضاء وقدمت احداهما الى الشيخة نعمات وهي تقول بلهجة الغزاة الفاتحين : « اشربي يا شيخة ، اشربي الشاي ، فهو كؤوس العارفين »

و « غمامة تذوب » ، قصة الارملة وقد تزوجت بنتها ، فتتجسد لها الحاجة الى زوج تلوذ هي في حماه ، وتروح تنغص على صهرها هناءته الزوجية وتكون له اشبه بالعدو المترصد ، وتحار البنت بين امها التي ربتها وبين الزوج الذي تريد ان تنشد السعادة والاستقرار بين يديه ، الى ان يقيض الله للصهر عما جاء يقيم معه في الدار ، فتروق له الحماة ، و « دارت كؤوس المرطبات بشراب الورد والليمون ، ونهض المأذون داعيا مباركا الزوجين المجددين .. »

على ان اروع ما ضمته في جوانحها المجموعة قصة « وسواس » . انها درة في تاج . تجعل من العدوى النفسية مرتكزا تنهض عليه عقدة القصة . فـ « تهاني » رسامة موهوبة احبت ان تنقل وسواس صديقتها « جمالات » الى لوحة ناطقة . وقد كانت جمالات على ملاحتها منحرفة الحس لا تأكل الا وحدها وتشمئز من القبح والعاهات وتأنف من مصافحة الايدي ولمس اشياء غيرها . ولقد جعلت الرسامة تستزيرها خفية بها لعلها تحس وسواسها احساسا عميقا فتستطيع على طول التداني ان تستغرق في طبعها ، وهي تعدها في ذلك بلوحة رائعة تبدي ما فيها من ملاحة . وثابرت جمالات على الجلوس امامها تراود خاطرها الصورة الموعودة ، فاذا الصورة بعد ذلك تأتي آية في الفن ، ولكن على غير ما تتمنى المرسومة ، فقد نطقت الصورة بالتردد في النظر ، وارتسم الانقباض على الانف ، ولاح في الشفتين طابع التقزز . فلما رأتها جمالات غضبت لكشف الصورة ما لم تكن تعرف من دخيلتها ، ولكنها تجلدت وعزمت على ان تغير ما بنفسها ، فاذا هي تنزع عنها لبوس الوسواس وتغدو سليمة النفس تؤاكل اهلها ، وتقبل على الصغار معانقة ، وترثي لكل عاهة .. اما تهاني فقد ملكت عليها الصورة اعجابها ، وجعلتها « في غرفة نومها تفتح عينيها عليها في الصباح وتغمضها بالليل ، وما راع اهلها الا انطواؤها على نفسها ، وقد دهشوا اذ رأوها تتقزز من صغارهم وتتجافى عن كبارهم ، واذا صافحت يدا سارعت الى الماء ... »

أما فيما يتعلق بالهيكل الفني لاقاصيص المجموعة ، فان بيننا وبين المؤلفة ، فيما نرى ، حسابا عسيرا . ذلك انها لا تولي « البناء » اهتمامها ولا تحفل به اي احتفال . تلج الى موضوعها من المنفذ الذي تصادفه اولا ، وقد يكون وسيعا ، او متعرجا ، او طويلا يبهر النفس ، فذلك ما ليس لديها بذي خطر او شأن . واننا نرى ان على الفنان القاص — والقصة فن — ان يدرس أيا من المنافذ والمداخل يحسن ولوجها لتفضي به الى لب الموضوع ، فاذا غدا في الموضوع : هل ينبغي ان يكون الزمن ، الذي تلعب فيه الاحداث ، ضيقا او متطاولا ؟ عهدنا ان الاقصوصة — ولا بأس ان نعيد هنا ما قلناه يوما — تعنى برصد حادثة رئيسية او ازمة نفسية يعيشها الشخص الاول ، وينبغي ، تبعا لذلك ، ان ينحصر « المجال الزمني » للاقصوصة في اضيق ما يكون من زمان ، وذلك من ابرز مميزات الاقصوصة ، وهو ادعى الى استحواذ القارىء واعداده للمشاركة الوجدانية ، وكلما ضاق الزمن تدانت الاقصوصة من التشويق والامتاع .

وعلى ذلك ، فان المؤلفة ، اذ امسكت بالقلم لتكتب رائعتها « وسواس » ، لم تعن باصطفاء المنفذ المناسب الذي يؤدي بها الى الغرض من غير مسير مضن لا غناء فيه يبعث في النفس

السأم . لقد صاحبت المؤلفة «تهاني» احدى البطلتين ، وهي تأوي « الى مضجعها مثقلة الراس مضطربة الخاطر » ... وطالت مراودة النعاس لجفنيها حتى تغلب عليها ... ثم استيقظت في البكور ، وانطلقت الى رسومها وهي تشعر بانقباض ... ثم جعلت ترسم ، الى ان ضاقت بريشتها فحملت ادواتها في طريقها الى حديقة « الاورمان » ... فعاودتها الحيرة .. ثم احست بالوحي يتنزل على فنها .. ثم جعلت تتأمل الطبيعة ، وسارت نحو حوض في الحديقة ، ورأت الى زهر اللوتس فتأملته ... ثم عادت الى البيت ... وهناك ، « وعلى حين غفلة خطرت في بالها صديقتها جمالات ... » « وتراءى لها وسواسها الذي ابتليت به ، فتمنت لو يواتيها الفن لتستطيع ريشتها التعبير عنه » ، وتبدأ القصة . وكذلك استنفد هذا المدخل ثلاثا من الصفحات ونصف الصفحة ، فما جدواه ؟ ان الحادثة الرئيسية في القصة : ابداع الرسامة تصوير وسواس صاحبتها والعدوى التي تصيبها نتيجة لفرط اعجابها بما رسمت ، فما علاقة هذا بذلك المدخل الطويل الذي شغل خمسي صفحات القصة ؟ الا يثقل ذلك القصة ويحرمها من « التواتر » التواتر الروائي الذي يدنيها عادة الى النفس ويثريها بعناصر الجاذبية والامتاع ؟ . اما « الذئبة » فقصة في رسالته ثلثاها لغو ، والحق ان الحادثة الرئيسية فيها تبدو في اول الثلث الاخير ، من : « بعد موت ابيها وامها وجدت في عمتها الحنان .. »

اما «المجال الزمني» ، الذي تتراوح فيه احداث القصة ، فممتد متطاول في بعض القصص الى شهور وسنين . ويتجلى ذلك بخاصة في « ذات الوشاحين » ، حيث تكون الزوجة في الثلاثين ، فيموت زوجها لتتزوج بعد سنتين من فتى ، ثم تقضي في حادثة ما . وكذلك في « الروح الشاردة » ، تتزوج البطلة في اول القصة ، لتنتهي وقد اصبح للبطلة بنت صبية في حين شاب هي شعر راسها .

ويغيب عن خاطر المؤلفة احيانا ان تدرس موقفها – كمؤلفة – من القصة : أراوية هي ، أم شخص من شخوصها ، ويتضح التشويش في ذلك في « السوار » . ففي مستهل القصة نعرف ان المؤلفة شخص من شخوصها « نحن في المحكمة بين يدي القاضي ، وقد جئت مع صديقتي لنشهد معا دعوى ضد قريبتها ... كان الحاكم شيخا وقورا ... » وتمضي في وصف ما تشاهده في القاعة ، وينادي القاضي على خصمين زوجين في دعوى موضوعها نزاع على ملكية سوار ، يخلص منها القاضي الى ان السوار للزوجة ويحكم لها به . الى هنا وموقف الكاتبة سليم لا غبار عليه من الوجهة الفنية ، لانها شاءت ان تتخذ شخصية المتفرج الذي يرصد ما يقع تحت بصره وسمعه ، وكان ينبغي ان تمضي في هذا الموقف حتى النهاية ، الا انها لا تلبث ان تنتقل الى رصد ما لا يقع تحت بصرها ، فتقول : ومضى الزوج و « ليس في قلبه مقدار ذرة من الحنق على الحاكم ، وانما فيه قنطار من الغضب على زوجته المهجورة » ، فكيف تأتى ان تعرف المتفرجة ما في دخيلة الزوج من حنق او غضب ؟ ثم انها راحت ترصد ذهاب الرجل الى « المقهى القريب الذي تعود (!) ان يغسل فيه همه .. وهناك تلقاه صحبه بتحية خاطفة (!) ... » ، فكيف عرفت خبر ذهابه الى المقهى ؟ هل تبعته ؟ ولم لم تذكر ذلك فتقول مثلا : « ثم بدا لي ، مع غرابة النزاع ، ان الحق بالرجل استنطقه سر السوار ... » ولقد مضت المؤلفة في هذا السرد المختلط ، فجعلت تحكي لنا حكاية السوار الحقة (!) ثم تتابع السرد بقولها : ان الزوجة المهجورة ، بعد ان حكم لها القاضي بالسوار ، انطلقت الى الصائغ الذي دفع لها فيه الفين من الجنيهات فوعدته بالعودة بعد المشاورة ، « وعاد السوار يؤلف بينها وبين زوجها الذي هجرها من سنين ، فباعاه بثلاثة الاف وتصافيا باقتسام الثمن ... » . ولا يخفى ما في هذا السرد من ضعف في التقنية القصصية يهبط بجمالية الموضوع « الشعبي » الذي كان يمكن ان يبلغ الذروة لو بذل في صياغته ما يكفي من عناية واهتمام .

ولقد لاحظنا ان المؤلفة كثيرا ما تعمد الى التدخل ، على فجأة ، بين شخوص القصة ، مبلغ علمنا انها ترصد القصة كرواية ، فاذا هي تتدخل كأحد شخوصها . ففي « غمامة تذوب » ، تحدثنا الكاتبة حديث راوية عن شخوص القصة وما يكابدون في الحياة ، ولا تلبث ان تنزل الى ساحتهم كشخص منهم وتقول : « وكنت ما زلت افكر في حل لهذه المشكلة المستعصية حتى قهقه القدر الذي لا يستعصي عليه شيء .. » ، وكذلك تفعل في « الروح الشاردة » حيث تقول : « ورحت بعد امد افكر في سرها المكنون .. » ، وفي « سر الامومة » ، « ذات الوشاحين » ، « العود المسحور » ، « الدينار الابكم » « عين الشيطان » ، « فيلسوف الرياح الاربع » .

على ان للمؤلفة اسلوبا مشرقا في مستوى لا يؤتاه الا من ملك ناصية البيان ، وهي تكثر من الصور والتشابيه الماتعة تكتظ بها صفحات المجموعة . تنصت اليها وهي تريد ان تبلغك ان المرأة القت سؤالها لتنتظر الجواب متلهفة ، فتقول : « قالت الحاجة « وصيفة » سؤالها بنفس امرأة فقيرة خلعت خاتمها الثمين وطرحته بين يدي جارتها لتسألها عن قيمة حجره النادر » ، واستمع الى عاشقة تسر اليك باحاسيسها : « لقد طفت روحي من اعماقي كما يطفو الماء من الينبوع ، اليس للارواح اطوار تكون فيها كالانهار ؟ على ان السيل الذي انصب في صدري واحدث هذا الطوفان كان حبا جارفا » .

والمؤلفة بعد هذا حريصة على ان تورد الحوار بالفصحى دون ما شائبة من عامية هابطة . انظر اليها وهي تجري هذا الحوار بين جمالات وتهاني :

« – لماذا تطيلين النظر الى وجهي يا « تهاني » ؟

فتبسمت المصورة وقالت :

– ابحث عن سر فيك ..

فعبست «جمالات» وقالت في حدة

– الله ، وما هذا السر ؟ هل في وجهي غير ما في وجوه الناس ؟

– ربما ... – وماذا ترين ؟

– غدا تجلدين في صورتك ما ارى ، على ان لا تغيبي عني هذا الاسبوع .

– اريد ان تظهر صورتي رائعة حلوة ..

فاجابت المصورة على غير وعي :

– واذا خبت في تصوير سرك فينبغي ان اكسر ريشتي وانحر فني »

ثم استمع الى هذا الحوار بين

رأيت البنفسج

الى بنفسجية الثوب في بيروت

○

لرزوق فرج رزوق

●

العراق ـ البصرة

رايت بعيني البنفسج ..
افق يا صباح
ويا ضوء شمسي تموَّج
وناد الرياح
لتهزج
وتمرح فوق جناح مؤرَّج !
ويا موجة في عميق البحور
تصيد الرؤى
هلمي ، تعالي من المنتأى
وضمئي الصخور
اريقي عليها الحبور
وقولي لها : كنز نور
تبلَّج
وقلب اريج توهَّج !
ويا حلوتي
ان رمتني النوى
بعيداً ، وطالت بها ليلتي
فاني سأذكر ان الهوى
ينام سعيداً بجفني
واذكر اني
بعيني رايت البنفسج !

الجنيد واجيره :

« ـ يا مبروك ...

ـ نعم يا سيدنا .

ـ هل تكتم الاسرار ؟

ـ كل الكتمان .

ـ احلف .

ـ وحق سيدنا الحسين والامام الشافعي والسيدة زينب ، اني اكتم السر ولا ابوح به ، وهل عرفتني في طول ما عرفتك اخون او اغدر ؟

ـ اذا كان العصر من هذا النهار اريدك على ان تتبع الست فاطمة اخت صاحبنا الشيخ لترى اين تذهب ، ثم تاتيني بالخبر . وهذا ريال لك ، خذه الان .. افهمت ؟ »

الا يزري هذا الحوار بمدعى اولئك الناقمين على الفصحى الذين ما انفكوا يجارون متشكين من قصور فيها مزعوم عن مجاراة متطلبات الحياة اليومية او اداء خلجات النفس في حوار تتغل فيه عناصر الحركة وزخم الحياة ؟ ان مثل هذا الحوار لدليل على تهافت مدعاهم ، وانما تكون نقطة الانطلاق في تيسير الفصحى ، من حيث ينهض بعبئه المتضلعون منها المالكون زمامها ، من قرناء اديبتنا الفاضلة ، فان هم اخفقوا في رياضتها حق عليها ان توصم بالقصور او العجز او الجمود او ما شيء لها من وصوم ، وهذان النموذجان لدليل على فلاح محاولة التيسير . فليقر الغير عينا . ولتمض كاتبتنا في سبيلها مشكورة محفوفة بالرعاية .

ذلك ما عن لنا ونحن نحاول ان ندرس مجموعة « الستار المرفوع » . ولقد بينا ، جهدنا ، ما ضمت من مميزات ، من محاسن ومآخذ . وانا لنرجو الا يذهبن بالقارىء الظن بان ما في الكتاب من مآخذ قد طغى واستبد بمحاسنه ! فان اية مجموعة مهما علا كعب صاحبها في عالم القصة وكان ذا بال وخطر ، لا تخلو من سلسلة من المآخذ تعدد لدى الدراسة الحرة التي لا يأتيها الازورار من يمين او شمال .

وانا لنذكر في مزيد من الاعتزاز ، ونحن « نرفع » « الستار » عن هذه الدراسة المتواضعة ، يوم كان كاتب السطور يتقدم ، بالقاهرة ، الى السيدة وداد سكاكيني بنماذج من قصصه ، لتسخى عليه بالتوجيه الذي ينير له سبيل الحياة وقد كان بعد في عالم الغيب .

ومن ذلك السخاء راش جناحاه ، فحق له ان يشق بهما الفضاء متطلعا الى البواشق والنسور !

حلب فاضل السباعي

الشجرة

بقلم منيرة عبد الجواد

° °
°

استيقظت في الصباح الباكر وفتحت النافذة كعادتها لتهوية الحجرة فطالعتها شجرة النبق الكبيرة ، الضخمة ، ولسبب لا تدريه اطالت وقفتها امام الشجرة تتطلع اليها .. وشرد بها الفكر واذ بها لاول مرة منذ ثلاثين سنة تجد تشابها بين حياتها وحياة هذه الشجرة .. بل وتجد ترابطا بينهما ...

ثلاثو نسنة وهي تفتح عينيها يوميا على هذه الشجرة كل صباح وتراها كلما جلست الى المائدة .. او وقفت بجوار نافذة المطبخ ...

ان الشجرة هذه تقع في ارض فضاء واسعةموقوفة يكون المنزل الذي تشغل الطابق الثاني منه ضلعي مربع يسور هذه الارض .. ويشمل الضلعان اربع غرف بينهما صالة استعملت دائما كحجرة للمائدة .. ولذا فقد كانت ترى الشجرة عدة مرات يوميا .

ونقلت حجرة نومها من حجرة الى حجرة ، ولكنها كانت دائما ترى الشجرة كل صباح عندماتفتح نافذةحجرتها.

متى زرعت هذه الشجرة ؟ انها لا تدري فمنذ انتقلت اسرتها الى هذا المسكن وكانت في الخامسة من عمرها وهي تراها .. راتها في اوج نموها وقد امتدت فروعها المحملة بالاوراق الخضراء الجميلة والثمار الوردية اللون الدقيقة الحجم ، في كل اتجاه . لقد وصلت الفروع في بعض الاحيان الى قرب نوافذ مسكنها وكان من يمد يده من النافذة يستطيع قطف ثمار هذه الفروع ...

كم من مرة قلموها وقطعوا بعض فروعها ولكنها كانت دائما تبرعم وتزهر وتنبت فروعا جديدة تمدها بالغذاء والعصارة فتنمو وتكبر .. انها لا تذكر انها رأت احدا في يوم من الايام يسقي الشجرة ويرويها بقطرة ماء ولكن العلي الذي اوجدها في ارض وقف وجعلها هدفا لحجارة الاطفال للحصول على ثمارها يرويها بماء المطر الذي كان يتجمع في الحفرة المتسعة حولها ..

دار بها الفكر الى حياتها هي .. فهي الابنة المتوسطة ولدت بعد بنت وولدين بعدة سنوات ، ثم ولد بعدها بنتان وولد ، وكم تحملت من اذى وضياع حق واهمال بسبب ذلك ، كم خضعت لمن يكبرونها لانهم اكبر منها فتجب طاعتهم وتحمل ما يصدر منهم ، وممن يصغرونها لانها اكبر واعقل وهم صغار . لقد كان الموقف والمنطق دائما ينقلبان بقدرة عجيبة ضدها ..

كبرت وكبرت معها اعباؤها فقد تزوج الكبار وصارت هي شبه مسئولة عمن يصغرونها .. تلبي طلباتهم وتساعدهم في دروسهم وهي لم تتجاوز الخامسة عشرة بعد ..

لم تشعر ابدا بانها مسئولة من احد . انها مثل هذه الشجرة لم يحاول احد ان يرويها بقطرة ماء .. او بقطرة حنان وحب..حتى والداها صباحنانهما وحبهما وعنايتهما على من يكبرونها من اخوتها ثم انتقل هذا الحب والحنان وهذه العناية الى من يصغرونها .. وهكذا ضاعت في الوسط . وكانت قطرات الري في حياتها قطرات قليلة سريعة من قريب لها ، لم تكد تتذوق عذوبتها وتلتذبطعمها حتى تحولت ينبوعا عذبا لا ينضب ولكن لشقيقتها التي تصغرها بسنوات فزفت اليه ..

تزوج اخوتها واخواتها جميعا .. وهي باقية في المنزل او « البيت الكبير » كما اصبح اسمه منذ خرج منه كل اخواتها .. ولم تتناقش يوما لماذا لم تتزوج كبقية شقيقاتها ؟ بل تركت الحياة تسير وهي تسير في ركابها ..، واحيل والدها الى المعاش واستقر بالبلدة يدير شئون ارضه ومعه والدتها ، وبقيت هي ومعها خادمة بالقاهرة في « البيت الكبير » تستقبل فيه من بالقاهرة من اخوتها واسرهم كل يوم جمعة كما كانت عادتهم قبل سفروالديها. لم تغير شيئا من نظام حياتها ولا من نظام المعيشة في المنزل ، واصلت تعليمها بعد الجامعة وكلما نالت شهادة حاولت شغل نفسها بالاستعداد لاخرى ربما لا يكون بينها وبين السابقة لها اي ترابط ..

وعادت الى الشجرة تتأملها كانها لم ترها.. ان الشجرة لم تورق هذا العام الا اوراقا قليلة مبعثرة على فروعها المتناثرة التي تشبه عروقا نافرة في يد عجوز اضناها العمل .. والطيور هجرتها ايضا ، لم تعد تبني بها اعشاشها التي كانت تكثر بين فروعها ، ولم يبق منها سوى عشين يبدو انهما مهجوران ..

انها هي الاخرى هجرتها طيورها او تباعدت عنها ، لم تعد ترى صديقاتها كل يوم كما كن فيمامضى.. لقدفرقتهن الحياة في البلاد .. والموجودات منهن في القاهرة شغلتهن اعمالهن واطفالهن عن زيارتها .. الا في فترات متباعدة .

لا بأس فالشجرة ما زالت باقية في مكانها ، بل وهناك حولها شجيرات صغيرة تستقبل الحياة وهي كذلك باقية في « البيت الكبير » ومعها اولاد شقيقيها وشقيقتها الذين خارج اقاهرة تسهر على تعليمهم ورعايتهم كما قامت على تعليم من يصغرها من اخوتها .. انها هنا ليظل « البيت الكبير » مفتوحا كما تؤنس هذه الشجرة وما حولها من شجيرات هذه الارض الفضاء وتذهب وحشتها . كم تود ان تعرف متى زرعت هذه الشجرة ؟ لقد زاملتها ثلاثين عاما ، فهل اقل من ان تعرف عمرها ؟ واقبل غلام في الثانية عشرة من عمره تقريبا وقذف بحجر الى فرع بعض الاوراق طامعا في سقوط ثمرة او اثنتين .. فاحست ان الحجر اصابها هي ورات الغلام ينحني ليلتقط حجرا يعيد به الكرة ولما كانت لا تستطيع منع الغلام من رجم الشجرة بالحجارة لم تجد امامها سوى مغادرة النافذة وهي تحس برباط عجيب من الحب والشفقة والالفة يربطها بالشجرة ..

عادت ذات يوم الى منزلها وهي تحس بألم شديد في عظامها انها تشعر كأن مطارق تدق عظمها حتى ليخيل اليها انها تسمع صوت الدق بآذانها ، وعندما تمددت في فراشها سمعت صوت دقات متوالية عالية علمت انه صوت فؤوس تعمل في الشجرة لتقطيعها ، والتبس عليها الامر فلم تعد تدري هل صوت الفؤوس ام صوت المطارق التي تدق في عظامها هو الاعلى وايهما تسمع ؟ وكلما رأت قطعة من خشب

قصة قصيرة

الوهم الذي يموت

بقلم محمد حاج حسين

لا .. يا ليلى .. لا معنى لهذا اليأس .. فجراح القلب سرعان ما تلتئم اذا صادفت تفكيرا نيرا ، وعزيمة صادقة . فما معنى تفكيرك بالموت ، وانت في ريق الشباب ، افاء الله عليك الجمال والرقة ؟ . الانك تتوهمين انك احببت شخصا خطب غيرك تذهبين مع هذه الافكار القاتمة ؟ سأسرد عليك تجربة عبرت بي لتري ان تفكيرك الان سخيف ويجب ان تنأي عنه .

كنت في العشرين من عمري عندما عين ابن خالتي توفيق قاضيا في بلدتنا ومن الطبيعي ان يسكن في بيتنا لانه اعزب ليس لديه من يخدمه . واصارحك ان الايام التي قضاها بيننا شدتني اليه بحب تغلغل في دمي ، واصبحت افكر فيه ليل نهار مأخوذة بشبابه الريان ، وخفة دمه ، فكل شيء فيه كان يجذبني اليه لا سيما ان والدته منذ طفولتنا كانت تزعم انني خطيبته ، فلا عجب ، وقد بلغنا سن الزواج ان اتمثله زوجي فانطلقت عواطفي الحبيسة نحوه دون هوادة فكنت اخدمه بتفان ، اوفر له كل راحة وانتظر تلك الساعة الجميلة التي تعلن فيها خطوبتنا .

كنت لا اتنفس الا لاجله ولا اهتم بشيء اذا كان لا يهتم به ، حتى احتل جوانحي ، واصبح الخفقة التي ترفرف في قلبي ، فهو املي ومستقبلي وحياتي ولم اجرؤ ان اتحدث اليه بحبي معللة النفس بأن خطوبتنا امر واقع .

سد علي المنافذ ، حتى لمحت شقيقتي فاطمة هذا الوجد الذي اعانيه فطفقت تستدرجني لاحدثها بوجدي ، بيد انني كتمت عنها طويلا قصة حبي ، حتى شعرت بحاجة لشخص افضي له بمكنون قلبي لانفس عني هذا الكبت الذي يجثم علي .

واخيرا اعترفت لها بحبي لتوفيق وهنأتني على هذا الحب الذي امتاز بالشباب الدافق ، والخصال الحصيفة التي تتجمع فيها كل احلام العذراء .

وفجأة القى ابن خالتي القنبلة .. فقد صارح والدتي ذات يوم انه يرغب في الزواج باختي الصغرى .. فاطمة .. ووقع هذا النبأ على والدتي وقوع الصاعقة ، فقد اكتنهت انني اميل اليه ، سيما انني شبه مخطوبة له منذ طفولتنا .

وقالت امي : انك يا توفيق خطيب الهام منذ طفولتكما .

ـ يا خالتي .. انا احب فاطمة .

ـ ولكن الهام اجمل من فاطمة

ـ هذا امر يخصني وحدي

ـ اني آسفة ، فنحن لا يمكن ان نوافق على زواج فاطمة قبل الهام

ـ والسبب ؟

ـ الهام هي الكبرى . .ويجب ان تتزوج اولا

ـ هذه فكرة عتيقة لا معنى لها .

وسرى الخبر في البيت ، فشعرت ان النار تشتعل في كياني . ولاحظت امي الشحوب الذي قنعني ، فاضطربت وسألتني السبب برفق ، فلم اتمالك من الهرب الى غرفتي ، حيث اطلقت لعواطفي السجينة العنان ، ولحقتني امي لتراني في بكاء مذيب ، فراحت تلاطفني ، وصاحت :

سأرفض خطوبته لفاطمة

ـ يجب ان تتم هذه الخطوبة .

ـ كلا . لن تتم .

ـ لن اقف عثرة في سبيل سعاد اختي .

وامن والدي على راي والدتي ، عندما فاتحه توفيق بشأن خطوبته لفاطمة ، فجن ابن خالتي ، لانه كان يهوى فاطمة ويحبها بوجد مشبوب واخلاص عميق .

في نفس هذا اليوم انتقل ابن خالتي الى فندق ، ولم يحاول احد ان يمنعه

وبعد ايام جاءت والدته الى بيتنا تطلب يد فاطمة .. فكان الجواب الرفض بعناد .. وذهبت خالتي تزفر حنقا . ويبدو ان الحب قد برح بتوفيق ، فجاء الى بيتنا ، ومعه والدته . كان منظره يوحي باليأس .. زائغ العينين ، شاحب الوجه .. وقال لامي : اسمعي يا خالتي .. انت بين امرين : اما ان توافقي على خطوبتي لفاطمة او انتحر ..

وقرأت امي في عينيه العزيمة الصادقة ، فاضطربت ، وصاحت امه تتهم اختها ، وسمعت اللغط فدخلت الى الحجرة التي كانوا مجتمعين بها . واسرع الي توفيق يستعين بي على امي ، فقد كان يجهل العاطفة التي احملها له ، وهتف : ارجوك يا الهام ان تساعديني . ان امك ترفض ان تزوجني فاطمة .

وتمتمت : لماذا يا امي لا توافقين ؟

ونظرت الي طويلا ، وقد تجسمت لها بليغ التضحية التي أقوم بها وصاحت : فاطمة صغيرة .

ـ ابدا يا امي . انها في الثامنة عشرة .

ـ ولكن يجب ان تتزوجي اولا .

ـ خطأ يا امي . فحرام ان نقف في طريقها بهذه الحجة السخيفة .

وصاح توفيق : هذا هو المعقول

وفي المساء أعلنت خطوبة توفيق على فاطمة .. وبدوت فرحة ، .. والحقيقة انني كنت اتعس فتاة في

الشجرة او فروعها تسقط احست بمزيد من الضعف والوهن في جسدها ودارت بها الارض ...

تعالت صيحات الاطفال والرجال وهم يشدون الحبال لايقاع اخر قطعة من الجذع على الارض وفي اللحظة التي تهاوت فيها القطعة الاخيرة من الشجرة ارتفعت روحها الى خالقها .. كأنما لتثبت حقيقة الترابط والتشابه بين حياتها وحياة الشجرة ..

القاهرة

منيرة عبد الجواد

الوجود ، فقلبي ينبض بالام حادة ولكن ما حيلتي فيجب ان اضحي لاسعاد شقيقتي .

وعندما انتهى الحفل اويت الى غرفتي لاناجي همومي ، واندب حظي الكريه ، واعمل على خنق عواطفي التي تتململ جريحة معذبة لا تكف عن الصراخ .. فقد تجلى لي ساعتها ان حبي لم يمت ، بل زكت ناره ، وتضرم سعاره ، ونزت بي نقمة هائلة على اختي التي سلبت حقي ، وحرمتني نعمة حبي ، وتمنيت لو انني اقدر ا ناخنقها لاثار لكرامتي المهيضة .

وفي الصباح كنت مريضة لا استطيع حراكا .. ولكنني تحاملت على نفسي ، حتى لا يشعر اهلي بفداحة الخطب علي .. وكان عقلي يهب بي بقوة الى التضحية .. فما الفائدة من هذه العاطفة التي تعتلج بي ؟ هل انتزع الخطيب من اختي ، وهو المغرم بها ؟ واستقر رايي على وجوب اقتلاع هذا الحب من اعماقي .

ولكن ، كيف السبيل ، وهو يحتل كل ذرة في روحي ؟

استطعت ان البس قناعا من البرود ، والجمود بعد جهاد عنيف ، ومردت نفسي على نسيان هذا الحب ، وحاولت ان انزع مني كراهية اختي وما ذنبها حتى اسكب عليها نيران غيظي ؟

وجاءت المصيبة من الجانب الاخر . فقد زرفت الي ذات يوم فاطمة بعد ذهاب خطيبها الى عمله . كانت عابسة وقالت : اني اكرهك يا الهام .

ــ لماذا يا فاطمة ؟

ــ لانك تحبين توفيق .

ــ أؤكد لك انني لا احبه ابدا .

ــ كاذبة .

ــ فاطمة ..

وبكت ، وخرجت من غرفتي ، وهي تلعنني ، وتتمنى لي الموت . ووضح لي ان حبها قد دفعها الى هذه الغيرة المجنونة التي لا اساس لها .. وتبعتها الى حجرتها ، واقهمت لها بكل محرجة من الايمان انني لا احبه ، ولا افكر به .. رغم انني كنت اكذب فلم تصدقني بل واجهتني بتهمة قاسية فقد صرخت بي : انك تعملين على انتزاعه مني .

وشعرت بعظيم الما ، فانسحبت برفق ، لانجذب الى هم جديد .. كانه لم تكفني خيبة حبي حتى تلصق بي هذه التهمة .. وفكرت .. واستقر رايي على الابتعاد عنه .. فقد كنت احامله حتى لا يلحظ تأثري من خطبته لفاطمة وابتعدت عنه واصبحت لا اجاذبه الحديث الا قليلا ، فاذا طلب مني ان ارافقه الى السينما مع فاطمة تعللت بزيارة رفيقة لي ، واذا اصر على دعوتي للنزهة في مكان ما .. تعللت بشتى المعاذير .. ولكن اختي ظلت على عقيدتها ، يصو رلها خيالها المريض انني احاول انتزاعه منها .

وراحت تتعجل الزواج لتنقذه مني . ورايت من واجبي ان اخطو خطوة اخرى لاقضي على الشكوك التي تساور اختي ، فعندما كان يأتي الى البيت كنت اغادره بسرعة بحجة زيارة الخياطة او زميلة لي .. ويبدو ان هذه العملية صادفت وقعا شيقا لدى فاطمة فقد جاءت الي ذات مساء وقالت : سامحيني يا الهام .

ــ لقد سامحتك .

ــ ما انبلك يا اختي !

ــ انت انبل !

ــ الان قد استنارت بصيرتي ، فانت اكرم كثيرا مما كنت اظن .

ــ كل ما اريده ان يوفقكما الله .

ــ لا استطيع ان اعبر لك عن ندمي لاتهامي الظالم لك .

ــ انني سعيدة لذهاب هذه الوساوس عنك .

وشعرت بجمال التضحية ، وتطهرت ، ووجدت سعادتي في سعادتهما .

وتم الزواج . وانتقلا الى بيت خاص ، وارتحت لهذه النهاية التي خلصتني من هذا التمثيل ، الذي كنت اقوم به ، وامتنعت عن زيارتهما فقد كان جرحي لم يندمل بعد ..

تضايقت اختي من عدم زيارتي لها ، فكانت تلح علي بوجوب زيارتهما . فانصعت لرغبتها وكيلا تعود اليها شكوكها الماضية ، كنت احرص على زيارتها عندما يكون في عمله خارج البيت ، حتى لا اتيح لها ان تفسر بسمة بريئة ، او نكتة عابرة تفسير لا يقره العقل ، فتنطلق الغيرة في جوها وتصطلي بنارها ، وانا الحريصة كل الحرص على اسعادها .

وصارحتني فاطمة انها محت كل ظل للشك في صدق عاطفتي نحوها . فتوثبت فرحا لهذه النهاية السارة ، رغم انني كنت لا ازال اعاني من حب توفيق ، ذلك الحرمان الذي ينغص عيشي ويترعه بالهموم

تصوري يا ليلى ذلك الجحيم الذي كنت اعيش فيه .. انني الان حين أتمثل تلك الاهوال التي عبرت بي لا اتمالك من الضحك لسذاجتي ، وتوهمي هذا الحب الذي حرمته ، وبنيت عليه القصور في الهواء ..

واخيرا .. مسح الزمن جراحي . فقد انبأني والدي ان طبيبا شابا يطلب يدي ، واطرى لي اخلاقه ومستقبله ، وسالني رايي فاعتصمت بالسكوت . واردف قائلا :

ــ أتودين التعرف به ؟

ــ لا ارى حاجة لهذا .

ــ من رايي ان تقبليه زوجا لك .

واحمر وجهي وانا اقول : انت ادرى بمصلحتي .

والواقع انني كنت اعيش في يأس مظلم ، من خيبة حبي ، فلم يعنيني من أتزوج .

وتزوجت هذا الطبيب دون ان اشعر بحب له .. غير ان حبه العظيم لي ، واخلاقه السمحة دفعتني الى ان احبه ذلك الحب العظيم الذي لا يعرف السدود ولا الحدود ، ووجدتني مع الزمن اضحك لغفلتي عندما احببت ابن خالتي .. وفكرت مرة بالانتحار لاتخلص من الحياة عندما خطب اختي .

انني الا ن امرع في السعادة ، فزوجي الغالي يعبدني ، واذا ما خلوت الى نفسي اشكر الله لانه لم ييسر لي الزواج من ابن خالتي .. لا سيما بعد ان رزقنا بطفل جميل جسد حبنا ببرائته ورقته .

هذه هي التجربة المرة التي مرت بي يا ليلى .. لقد نقلتها اليك بصدق ولم اطلع عليها انسانا سوى زوجي الذي يحلو له ان يتندر على غفلتي وسذاجتي في ذلك الحين .. وانت تدركين اننا نعيش في حب مكين مع اختي وزوجها .. اهزاي يا ليلى .. بذلك الشخص الذي خطب غيرك .. واحمدي الله كثيرا لانه لا يستحقك .. وعندما تجدين زوجك ستضحكين كثيرا على سذاجتك .. وتحمدين الله انه لم يتقدم لخطبتك .

القاهرة — محمد حاج حسنين

سرير

لعدنان مردم بك

دمشق

اي نجوى اغرت جفونك بالدمع
واثارت في كل عضو سعيرا
يا لبؤس القلوب من عبث النجوى
رب نجوى كانها لطمة الحرمان
تركت قلبك اللجوج مهيض
تتلوين من جوى وبعينيك
نظرات حيرى تضج من الوجد
زفرة اثر شهقة مثل حد

يا لنجوى أثيمة
بعثت جامح الهوى

ما لعينيك تنفثان لهيب
وتشدين من جوى فوق صدر
وتشيحين بالنواظر غما
اي حمى كانت تساور خديك
انها الشهوة الخسيسة كانت
رعدة الشهوة الاثيمة في نهديك
او كجنح السفين يخفق من ذعر
ولهمس السرير عندك وقع
نغم يستثير كل مريد

امل لاح نجمه
ذاد عن جفنك الكرى

وسرير أتيت من بعد لأي
ولجنح الظلام في كبد الافق
وعذارى الاشباح في كل أفق
فكأن السرير حين تلقاك
او مشوق يمد كفيه شوقا
فشبجتك الذكرى ويا رب ذكرى
وتعريت عن غلائلك البيض
واتخذت الظلام سترا لتخفي
والليالي ستر لكل مريب

انه الليل راكز
فانزعي برقع الحيا

اسريرا اتيت ام جئت نعشا
تتجافى عنه الجنوب ويأبى
ويكاد الجبين يجمد رعبا
وحنايا الصدور تخفق ذعرا
اشجتك الذكرى فاطرقت غما
من حنين الى ليال عذاب
طمست بدرها المنير غيوم
أم شجاك الصبا يموت كئيبا
يا لجسم يذوب فوق سرير

كم أمان كأنها
تركت اضلع الفتى

واذكت نار الاسى في الكبود
يتلظى بالنار ذات الوقود
وهمس الاحلام عند الهجود
وقعا على قلوب الغيد
الجنح ينزو كالطير اثر القيود
بريق الحمى ونار الوعيد
وتشكو من غصة التسهيد
النصل كانت تحز حبل الوريد

تتلوى على جوى
جذوة تأكل الفؤاد

الوجد وهنا كنفثة المصدور
عصفت فيه جامحات الشعور
من مرير الذكرى ووخز الضمير
وتوري بالنار رخص الصدور
تتلظى من حرقة وفجور
كانت كرعدة المقرور
لهبات كل موج هصور
كان أحلى من سجعة الشحرور
من شياطين افقك المسحور

في خضم من الدجى
ونفى لذة الرقاد

تحت ستر من الظلام البهيم
ارتعاش كرعشة المحموم
راتعات على جناح النسيم
رؤوم تضم شمل فطيم
من حنان الى خليل حميم
كمرير الاحقاد او كالكلوم
كرقطاء تعرت عن ثوبها في وجوم
ما عرا القلب من هوى محموم
وعزاء لكل صب سقيم

راية الصمت في الورى
واكرى مقود الرشاد

كان يبدي عن مائل الاشداق
جفنك النوم من مرير الفراق
منك فوق الوساد من اطراق
من رسيس الهوى وشحط التلاقي
حين غصت بالدمع منك المآقي
باسمات كالفجر في الاشراق
داجيات الاثواب والاطواق
ظامىء العود عاري الاوراق
من جحيم الاهواء والاشواق

النار او جمرة اللظى
خافقات من البعاد

مواليد جديدة في اللغة

بقلم محمود تيمور

عضو المجمع اللغوي بمصر

✳

في هذه الحقبة الجديدة التي اتاحت للبلاد العربية نهضة شاملة في مختلف المرافق العلمية والاقتصادية والاجتماعية ، ثارت مشكلة في اللغة عويصة ، حول المدلولات الجديدة في المعاني والاشياء والادوات ، فدارت المساجلات بين الباحثين والكتاب ممن يتحنثون ومن يترخصون ، بينهم من يقول بالتعريب ويعول عليه ، وبينهم من يأبى الا ان نتخذ من الفصحى مواضعات تقابل الدخيل ، وبينهم من يقف من الخلاف موقفا وسطا ، فيطالب بالمحاولة والمعالجة ويجيز التعريب اذا الحت الضرورة وانقطع الجهد .

ولم تتفق الاراء ، ولم تلتق وجهات النظر ، وبقيت المشكلة تتنازعها اقلام الباحثين والكتاب ، وهي على حالها من التعقد والاستعصاء ...

ولكن ماجريات الحياة لا تقف حتى تجد من الاراء المتعارضة وفاقا ، ومن وجهات النظر المتخالفة تلاقيا ، فقد اختطت لها في علاج تلك المشكلة خطة عملية فعالة ، تفرض نفسها في غير ما جلبة ولا ضجيج .

وما اقدر الزمن في سيره على حل المشكلات !

لقد شهدنا اساتذة العلوم والفنون، وارباب الحرف والصناعات ، يسعون سعيهم الحثيث لتأسيس لغة يتوحد فيها التعبير والاصطلاح ، وهم يستعينون الفصحى ويؤثرونها في اغلب ما يتخذون من تعبيرات وما يقرون من مصطلحات .

في كل مؤتمر علمي يعقده اهل الاختصاص، يبرزموضوع المصطلحات للدرس والبحث ، وينتهي فيه الراي الى الاجماع على اعلاء الكلمة العربية على مقابلها الدخيل ...

بل نكاد نجد في كل كتاب علمي يؤلف ، مظهرا من العنايةبمصطلحاته يتجلى فيه الجنوح الى الافصاح .

وثمة في الميدان الاكبر ، ميدان الحياة العامة ، في غير معاهد العلم واندية الدرس ، يلاحظ الناقد اللغوي ما يستبين من عزوف عن الكلمات الاجنبية ، ومن خلق لكلمات عربية تقوم مقامها في الاداء .

والصحافة خير مرآة لهذا التطور في المستوى اللغوي العام ، فيها يطالع المرء هذا الصراع الناشب بين الالفاظ الدخيلة وما يقترح لها من بديل عربي .

وفي المصالح والمرافق الحكومية ، يانس الناقد اللغوي روحا قويا من الرغبة في تقديم كلمات فصيحة ، لا تلبث ان تألفها الالسن ، وان تشيعها في الاسباب الدائرة بين الناس .

كذلك لا يفوت الناقد اللغوي ان المؤسسات الحرة ، والمتاجر الشعبية، والاسواق العامة ، اصبحت تتلقف المصطلحات الفنية الفصيحة في تسمية ما يتصل بها من الاشياء ، بل لقد اصبحت تطاوع ذلك التطور اللغوي الملحوظ الى ابعد مدى ، وتستجيب لمطالب الذوق الرفيع في التعبير ...

في ميادين « القاهرة » وشوارعها يتطلع المرء الى اللافتات على جبين المتاجر والمحلات ، فيصادف الطريف من التسميات ، والرشيق من العبارات ... فهنا محل « للمانيفاتورا والخردوات » يسمي نفسه ، دار الازياء ، وهناك محل للحلاقة يسمي نفسه بيت الزينة . وهذا محل لادوات « الاسبور» يسمي نفسه : بيت الرياضة ، وذلك محل لبيع الفاكهة يسمي نفسه : جنة الفواكه ، واخر لصنع المفاتيح يسمي نفسه : عالم المفاتيح ... الى غير ذلك من اسماء يتفنن في وضعها واختيارها التجار والعارضون .

ومن اطرف ما يحضرني في هذا الصدد ، مصداقا لشعور الجمهور نحو التعبير الجميل ، والبيان الخلاب، انه قد اذيع في وقت من الاوقات ان « البرسيم » مفيد للصحة ، وان عصارته تحوي من عناصر التغذية ما لا غناء عنه . فزين هذا لبعض محلات العصير ان تقدم كئوسا من عصار « البرسيم » مخلوطة بغيرها من الوان العصارات ، واذا كلمة تنجم للتعبير عن هذا العصير البرسيمي الجديد ، كانما اريد بها تحليته وتحبيبه الى الناس، واذا الكلمةشعرية فيها جمال وخيال ، تلك هي « شراب الربيع » فقراناها على اللافتات اسما لعصارة « البرسيم » !

ومنذ عهد بعيد ونحن نبحث عن كلمة عربية تقوم مقام كلمة (برافان)، وفي ايام الاستفتاء على الدستور وعلى رياسة الجمهورية ــ هذا العام ــ قرات في الاعلانات المبسوطة للشعب في مراكز الشرطة كلمة « ساتر » وبجانبها رسم (برافان) ، مع بيان الى الناخبين بان يسجلوا رايهم وراء هذا « الساتر » حتى لا يبصرهم احد ... وبذلك اصبحت كلمة « الساتر » في معنى (البرافان) كلمة ديوانية شائعة ...

ولقد ظلت كلمة (الطابور) تؤدي معنى خاصا هو اصطفاف جمع من الناس واحدا خلف واحد ، (فالطابور) هو الصف الراسي ، ولكن لفظه غير عربي ، ولا يكاد الكاتب يجد له مقابلا عربيا شائعا في الكتابة . بيد ان العسكريين قبلوا ما اشار به عليهم اللغويون من تسمية (الطابور) بالقطار ، وقد سمع الموظفون وغيرهم من الجماهير كلمة القطار تدور على السنة المعلمين العسكريين فيتدريبات المقاومة الشعبية ، تلك التدريبات الذي نظمت اثناء العدوان على مصر هذا العام ، فكان المعلم من جنود الجيش يقول لطلاب التدريب : نظموا انفسكم صفوفا ، اذا اراد ان يكون وقوفهم واحدا بعد واحد ، قطارا بجانب قطار ، وهكذا احتلت كلمة القطار محل كلمة (الطابور) في لغة

الجيش ، ولم يعد لتلك الكلمة الاجنبية في التشكيلات العسكرية وجود .

واذكر اسم (وابور الزلط) الذي ثقل علينا لفظه، فقدشهدته في بعض الطرقات وهو يحمل على جانبه اسما عربيا وضعته له المصلحة الحكومية التابع لها ، وهي « مصلحة الهراسات » واذن فهو « الهراس » ونحن لا ندري .. وكان مجمعنا اللغوي قد اطلق عليه من قبل اسما دقيقا له في قديم اللغة مكان ، ذلك هو : المرداس . والاسم المعجمي اولى ، لان الردس هو تسوية الارض ودكها، فاما الهرس فهو الكسر والدق ، وهذه الالة مهمتها الكبرى - فيما نرى - ان تسوي وتدك لا ان تكسر وتدق ولكن المجاز يقبل مثل هذا التوسع ، ومهما يكن من امر ، فقد نهضت كلمة عربية تحل محل (وابور الزلط) فيها ملامح المعنى المقصود ، وان لم تبلغ من الدقة ما راعاه المجمع حين اختار كلمة المرادس .

وفي احدى السيارات العامة « بالقاهرة » لمحت قطعة معدنية تزين صدر العامل الذي يتولى قبض الاجور من الركاب ، وقد حفرت عليها كلمة « محصل » ... فهذه الكلمة قد آثرتها شركة السيارات على الكلمة الاجنبية التي عاشت حقبة من الدهر وهي كلمة (كمساري) ... وقد كنت اقترحت كلمة « التذكري » واستعملتها لتقوم مقامها ، ولكن يبدو ان كلمة « محصل » هي التي ستغلب على كلمة (كمساري) غير ماسوف عليها ، وعلى كلمة «تذكري» ايضا ماسوفا على شبابها الغض !

وفي العهود المواضي كانت كلمة (الموسى) شائعة في تسمية الاداة التي يستعملها الحلاقون المحترفون ، فلما اتخذت الادوات الصغيرة التي يستعملها بانفسهم للحلاقة ، واراد التجار ان يسموا مواسيها في اعلاناتهم التجارية ، لم يطلب لهم ان يستعملوا كلمة (الموسى) حتى لا تلتبس بالموسى المعروفة عند اولئك الحلاقين المحترفين ، ونجمت كلمة حديدة في تسمية هذه الاداة الصغيرة الجديدة ، وهي « شفرة الحلاقة » لتمتاز بها عن موسى الحلاق . وفي اختيار تلك الكلمة ذوق مقبول .

وفي خلال المناقشات السياسية الدولية حول مشكلة القناة ، كتب قارىء الى احدى الصحف اليومية ياخذ عليها انها تردد لفظ (الفيتو) الذي يستخدم احيانا حين اخذ الراي في قرارات مجلس الامن ، وهذا القارىء يعيب على الصحف انها تفرض في قرائها المعرفة بمدلولات الكلمات الاجنبية ، ويرغب اليها في ان تستبدل بها بكلمة عربية مفهومة ... وفي ذلك النقد والمؤاخذة برهان على ان القارىء العربي لم يعد يرضى بغير الكلمات العربية التي تثير في الذهن دلالات من قريب او من بعيد ... ولو اننا اخذنا كلمة « النقض » التي اراها معبرة عن معنى (الفيتو) لاستطاع قارىء العربية ان يفهم منها مدلول الاعتراض او الرفض او الرد او ما يتصل بهذا المعنى ، وهي على اية حال ليست كالكلمة الاجنبية مغلقة المعنى ، طامسة المدلول ، يشيع انغلاقها وانطماسها ضيقا في النفوس وحيرة في الاذهان .

وفي اثناء الاحداث القريبة ، كانت البلاد المختلفة في الشرق والغرب تتخذ من الاجراءات التموينية ما تقتضيه الاحوال ، فقرات ثلاثة تعبيرات لمعنى واحد ، هو نظام التوزيع المحدد لبعض مواد التموين ، وقد سمي في « مصر » : نظام البطاقات ، وسمته احدى الاذاعات الاجنبية : نظام الجرايات واطلقت عليه احدى الصحف العربية : نظام المخصصات ... ويستبين في هذا التخالف في التسمية ما يشبه التقاتل في سبيل تسويد كلمة عربية ملائمة تؤدي هذا المعنى الجديد في ميدان الحياة .

وشبيه بهذا ما يجري حول كلمة (الفيزا) او الاذن بالخروج من بلد الى بلد ، ففي « مصر » شاعت لهذا المعنى كلمة (التأشيرة) ، وكنت قد اقترحت له كلمة « الوسمة » منذ فترة غير بعيدة فما راعني وانا في مفوضية الامن العام في « بيروت » الا ان اسمع احد الضباط يردد كلمة « الوسمة » معبرا بها عن « الفيزا » او « التأشيرة » ولم يكن في حسباني انها مستعملة في ذلك البلد العربي ، ولا توقعت ان تستعمل في زمن وشيك .

ومما يتصل بهذا ايضا ان مصريا يحمل لقب (اميرالاي) سافر الى بلد عربي ، فلما ذكر هذا اللقب لمن عند الحدود من الحرس ، لم يفهموا ماذا يعني ، اذ كان غير مرتد حلته الرسمية ، ولم ينج من الموقف الحرج الا حين تطوع احد الناس بالشرح ، فقال : انه عقيد ، فما ان علم الحرس بمعنى اللقب حتى رحبوا بصاحبه ، ويسروا له مهمته ، وزالت بينه وبينهم وحشة كان مردها الى الكلمة الاجنبية « اميرلاي » !

وفي صحف « لبنان » قرات اعلانا يبشر فيه صاحبه بوصول كميات من الزجاجات العازلة ، وقد اوضح معناها بمذكرة كلمة « ترمس » بين قوسين ، فقد عز على هذا التاجر ان يطالع القراء العرب بالكلمة الاجنبية وحدها دون مقابلها العربي ، فعبر عنها بالزجاجات العازلة ، وهو تعبير سهل مستوحى من وظيفة هذه الاداة وهي عزل ما تحتويه عن مؤثرات الجو من الرطوبة والحرارة ، وكان المرحوم الشيخ « السكندري » قد اقترح « للترمس » كلمة : «الكظيمة» وهي لا تخلو من غرابة ، وكنت قد قدمت كلمة « الزمزمية » لشهرتها وان لم تكن « الزمزمية » مثل « الترمس » في وظيفتها ، وتلك هي كلمة « العازلة » تجيء اليوم لتنافس فيما اراد المرحوم « السكندري » وفيما اردت ، وكل هذه الكلمات تتلاقى في انها قوى تكافح الكلمة الاجنبية ، كي تقصيها عن مجال الاستعمال .

وحدثني صديق ان زائرا مصريا قدم « لبنان » فاذا هو يقرأ فيها لافتة احدى الشركات مكتوبا عليها : « شركة مغفلة » ، ولم تفته الدعابة ، فقراها ضاحكا لمن معه : شركة مغفلة، بفتح العين وتشديد الفاء...والشركة لم تشأ ان تكتب الكلمة الاجنبية « انونيم » اي ذات اسهم غير مسمى حاملوها ، او غير مقصودة على اشخاص معينين ، ولعل الشركة لاحظت ان تلك الكلمة الاجنبية اذا كتبت بحروف عربية نبت عنها العيون ، فترجمت الكلمة بما يقابلها من العربي ، وارادت انها شركة ذات اسهم مغفلة ، بسكون الغين وفتح الفاء . وربما كان من الخير ان يقال : « غفلية » نسبة الى الغفل بضم العين وسكون الفاء ، والشيء الغفل هو الشيء غير المسمى صاحبه او المعروف شانه .

لم يعد ريب في ان روح الافصاح تخفق في صدر المجتمع العربي خفوقا يحفزه على ايثار الكلمة العربية واباء الكلمة الاجنبية .

وليس هذا مقصورا على العلماء في معاهد الدرس ، او الكاتبين في مجالات البحث ، وانما هو شامل غامر ، يستوعب العاملين في ميادين التجارة والصناعة ، وفي مرافق الحياة العامة ، فالصبغة العربية عليهم غالبة ، وسمو الذوق في التعبير بينهم واضح جلي .

واذا كان مجمعنا اللغوي قد لقى من غمزات المتفكهين ما لقى بحق او بغير حق ، حين رغب في اول عهده ان يقدم للجمهور كلمات فصيحة تقوم مقام الكلمات الدخيلة ، للتعبير عن شئون الحياة العامة ، والاسباب الدائرة بين الناس — فان الجمهور اليوم يشارك المجمع او يباريه في هذه السبيل ، واكاد اقول انه يسبقه في وضع الكلمات الفصحى ، وفي اشاعتها للتعبير عن حاجات الحياة .

وان من حق المجمع ، بل من واجبه ان يتسمع الى هذه الهتافات التي تتردد في جوانب الامة العربية ، وان تكون لها اصداؤها في سعيه واتجاهه لا يلقى بالا الى من يتفكهون بالغمز ، فاولئك هم اللاهون الذين لا ينظرون نظرة جد وتفكير ، واولئك ليسوا من الامر في قليل ولا كثير .

ان من حق المجمع ، بل من واجبه الا يجاري الظواهر السطحية التي تبدو كما يبدو حباب الماء ، ثم لا تلبث ان تخفى كما يخفى حباب الماء ... وانه لواجد في صميم المجتمع العربي نزوعا اصيلا الى ان تكون العربية لسان الحضارة التي تغمره من كل جانب ، فهو يسمو الى ان يعبر عن كل شيء يزاوله وكل معنى يخالجه بلفظ عربي مبين .

وقد كنت دابت منذ زمن على تدوين ما يقع تحت ناظري اثناء مطالعاتي في الصحف والمجلات من الفاظ جدد وجد المؤلفون حاجة اليها فاجتهدوا في وضع صيغها لاداء مدلولات عصرية .

وفيما سلف ، قدمت مجموعتين من كلمات الحياة العامة ، منها ما تلقطته في بعض القراءات والمطالعات ومنها ما اقترحته ، وعرضت لي الحاجة الى استعماله فيما اكتب .

وهانذا اقدم مجموعة ثالثة ، ارجو ان اتبعها مجموعات اخر ، وما اريد بها ان التزم الكلمات التي وضعها الناس قبلي ، ولا اردت ان الزم الناس بما لي فيها من كلمات مقترحة ، وانما انا ابغي وضعها تحت الانظار ، وعرضها على مدرجة البحث ، وتقريب منالها من الراغبين .

واللفظ كائن حي ، مولود جديد ، علينا ان نلقى به في خضم الحياة ، لكي يزاول تجربته في هذا الوجود .

★ ★ ★

وهاكم مواليد جديدة في لغة الحياة العامة ...

النيرسري Nursery حجرة الحضانة
السير Serre بيت النبات
قومسيون طبي : لجنة الفحص الطبي .
كونسولتو : هيئة طبية .
اوتوستراد : طريق السيارات
كورس : جوقة
بيرسبكتيف : المنظور .
جيتر : المسماة . الران . غطاء الجذاء .
امبرميابل : ممطر . معطف واق . معطف مطر .
البالون : المنطاد .
البالو : الفنزج (حفلة راقصة يشترك فيها جميع الحاضرين)
الباليه : الرقص الرمزي (تؤديه جوقة من الفنانين) .
الباليرينا : الراقصة الاولى .
الكلاكسون : آلة التنبيه (استعملها قلم المرور في وزارة الداخلية المصرية)
وابور الزلط : الهراس (استعملتها وزارة الاشغال وفيها مصلحة تسمى : « مصلحة الهراسات ») .
الصندل : الصندلة (نوع من الاحذية ، والكلمة معربة من قديم ، ووردت في معجم : المصباح المنير) .
المكمدات : الكمادات .
التشحيم : تزويد السيارات بالشحم وما يتصل بالتنظيم والاعداد
الجرسيه : المكرش .
سينما فستافيزيون : السينما الغائرة او : المنظر الغائر .
تليكومينيكيشن : الاتصال الكهربي
الترمس : زجاجة عازلة ، او العازلة او : الزمزمية ، او : الكظيمة .
الليكوبلاتس : اللصوق .
السيسبنس Suspense التوتر ، مواقف سينمائية تثير الانتباه والتوقع) .
السيرناد (في الموسيقى) : الفرامية
السمفوني : ملحمة موسيقية
الفيتو : النقض
القايش (للموسى) : المشحذ
المركوب : (يخصص لهذا النوع من الاحذية ذي الطابع القديم واللون الاحمر .)
السيفون (لمرافق المياه) : صندوق الطرد .
فوتوجينيك : ذو وجاهة تصويرية
كتالوج : دفتر المعروضات
المونوتيب : السبك الحرفي — سابكة حرفية . او : الصف الحرفي — صفافة حرفية .
اللينوتيب : السبك السطري — سابكة سطرية . او : الصف السطري — صفافة سطرية .
البستنة : تعليم زراعة البساتين وتنميتها وكل ما يتصل بها .
التمصير : صبغ الاشياء بالصبغة المصرية ، مثل تمصير رواية اجنبية ، او تمصير شركة اجنبية ..
التونسة : جعل الاشياء تونسية ، نسبة الى تونس .
السودنة : جعل الاشياء سودانية ، نسبة الى السودان .
التعصير : جعل الاشياء عصرية ملائمة للحالة الحديثة الحاضرة ، مثل تعصير رواية من انواع الاتباعي (الكلاسيك) واعدادها وفق مقتضيات العصر الحاضر .
البروتوكول : العرف السياسي .
الردنجوت : حلة المراسم
السموكن : حلة السهرة
البنو : الاطار الخارجي لعجلة السيارة .
الشمبراير : الاطار الداخلي لعجلة السيارة .
جيلى المربى : الهلامية
مرملاد المربى : المهروسة
بابيتري Papeterie : وراقة ، وصاحبها : وراق
ليبريري : مكتبة ، وصاحبها : كتبي .
قلم الحبر : المداد (استعمل حفني ناصف منذ خمسين سنة كلمة

ثكالى

✳

في وحشة الدرب البعيد يسير
يحتضن الظلام ، دون رهبة ،
دون خلجة كالاسير
الى ساحة العدم يدب
مؤمنا في الكفاح في ذات المصير
ومن انغام صلصلة القيود
يرتل الآلام ، في رفق ،
في حنان كالغريد
على اغصان خضراء ، يقفز طربا
في حياة ، في لمس العهود
أي وحشة ، أي ظلمة ، أي نغمة
كلهم ثكالى ... يتعزون
بطاقات السجون ... يتأملون
في ذاك القمر ، أصفر اللون
قد أضناه السهر
ينظرون ... الى تلك الشمس
من نيرانها يستمدون سانحات الفرص

أي حلم ، أي وهم ، أي ألم
كلهم حيارى ... يتقلبون
على فراش الازل .. يحلمون
في ذات النحور ... في وجه الامل
يتحدون القدر
كلهم ثكالى ... كلهم حيارى ...
زهرة هي ، باشواك عابثة
فواحة هي ، تذوب على النسمات
تتلاشى في أبخرة الشمس السائرات
تسير على الدروب على نفس الدروب
الى ذات المصير
كالاسير
ملتحف بالقيود ، مع الوحشة ،
مع الظلمة
مع الآهات
مع عفن التراب

وليد ملحس

الاقلام المدادة)

المازورة : شريط القياس

الطابور : القطار (استعمله الجيش المصري في التشكيلات العسكرية)

برافان : ساتر (استعملته وزارة الداخلية المصرية)

سويتر : عرقية ، او : سويتر ، على ان تنطق بصيغة التصغير ، اما باعتبارها تعريبا ، واما باعتبارها مصغر كلمة : ساتر على توهم انها عربية)

نظام البطاقات ، او نظام الجرايات، او نظام المخصصات : توزيع المواد التموينية وغيرها بمقادير معينة لا تتعدى .

الدوريات : المطبوعات التي تظهر في مواعيد دورية ، يومية كانت او اسبوعية او شهرية او حولية ، وهي الصحف والمجلات والنشرات ذات المواقيت .

شركة انونيم : شركة غفلية ، وفي بعض البلاد العربية يقال : مغفلة . وهي شركة ذات اسهم غير مسمى حاملوها .

الرجيم : الحمية .

الشفرة : جزء من اداة الحلاقة الشخصية ، ويسمى باسم خاص للتفرقة بينه وبين الموسى الكبيرة التي يتخذها الحلاق المحترف .

الجرتيير : حمالة الجورب

الكمساري : المحصل (استعملته احدى شركات السيارات)

البلاك اوت : التعتيم او الاظلام .

الفيترينة للمتجر : الوجهة

جعل الادب للدهماء : تدهيم الادب

فن صناعة الفنادق : فن الفندقة

الميزانباج : تنسيق الصفحة

مصباح الفلورسانت : المصباح المشع

اتوجراف : التوقيع ، دفتر التوقيعات .

القاهرة **محمود تيمور**

قصة سورية

المنديل

بقلم علي بدور

كيف لم يحضر احد حفلة زواج حسن الدمام ؟ لقد حضرها جميع من عرف في حياته بالاضافة الى الموظف المختص بتسجيل احكام العقد !

لا يزال يذكر تلك الحفلة ، انه الان يذكرها تماما ، ان قصة هذا المنديل الاحمر تذكره بها بصورة اجبارية . لقد انهمك طيلة النهار في اعداد العدة لذلك اليوم الموعود وقد رآه ، وكحل جفنيه بمراى الناس وهم يفدون فرادى وجماعات ، يبسمون في وجه العريس المنتظر ، ويتمنون له حياة لها اول سعيد ، ونهاية لا تفصح عن الوانها الجميلة المطرزة كذيل الطاووس .

في خلال النهار ، اعد الحلوى .. والشراب ، وتحدث مع المختار كي يأخذ له الاذن من المخفر ، حيث سترتفع الاصوات .. وستعزف الموسيقا ، وستعلو اصوات الشباب ، اولئك الذين يتبارون في انشاد المواويل ، وكذلك فقد حدث القهواتي فاحضر عدته .. وهيأ القهوة المرة ، وكانت الدلائل كلها تشير الى ان حفلة عرس حسن الدمام ، سوف تكون من انجح حفلات الموسم .

وقد صدق ظن كل من تنبأ بذلك ، حتى حسن الدمام نفسه .. انه لم يخب له ظن ، فقد جلس يستمع الى مواويل الشباب .. وتأمل رقصات الفروسية كما اشترك في الدبكة العربية ، وقعد امام الموظف المختص ، يسأله فيجيب .. والبسوه ثيابه التي اعدها خصيصا لهذه المناسبة ، ومازحه من احب المزاح ، وبينما كان الشباب ، يتبارون في الصراخ والضحكات ، كان الى جانبهم ، في الدار المجاورة ، مئات من السيدات والانسات يشتركن في بهجة زينب بعرسها ، بيوم حياتها الاول والاخير . وكان اجمل ما في زينب ، ذلك البرقع الشفاف من الخجل الذي زاد من احمرار وجنتيها وافاض على فتنتها ، كل ما يخطر على بال المرء حين يتصور ، فتاة تعد نفسها لان تخلو بفتى احلامها ...

لقد تزوج حسن الدمام ، وحلقت السعادة فوق رأسه ورس عروسه والى الان لا يزال يسمع حفيف اجنحتها ولكن الاجنحة بالذات مضت بعيدا . انه افاق على الواقع ، فوجد عروسه من هاتيك النساء اللاتي ينسين كل شيء ويذكرن انفسهن ، لا يسألن عن ازواجهن وكيف يتعذبون ، وكيف يجب ان يتقاسموا العذاب والافراح معا ، وعندما رزق بولده الاول ، حسب انها سوف تؤوب مع وفادته ، فتضع عقلها في راسها ، وقلبها في صدرها فلا تخلط في مناقشة وقائع الحياة ، بكل من هاتين الاداتين وما قدر لهما .

انزاحت امام عينيه مئات من الاقنعة ، وسمع قصصا عديدة عن سلوك امها قبل سنوات عديدة من زواجه ، يوم كانت حماته زوجة رجل بسيط ، له ثلاث بنات !! ولكنه وضع هذه القصص التي سمعها ، في سلة المهملات .. اذ ليس من انسان يخلو من قصة قد تشين سيرة حياته ، فاذا محصت تمحيصا ، ظهر باطلها من زيفها . ولكنه لا يزال يذكر الى اليوم كيف نبهه احد اصدقائه المخلصين الذين يثق بمودتهم وصداقتهم ، الى ان الفتاة صورة عن امها .. فاذا كانت الام شريفة ، كانت الفتاة شريفة مثلها ، بل واكثر استقامة اما اذا كانت الام متهاونة ، رات من فتاتها تهاونا اكثر .. في كل شيء !!

ولكن كان عليه ان يتحقق من سلوك الام .. الا انه ارتد خائبا اذ من يستطيع ان يدله في هذه المدينة الكبيرة على الذين مروا بها ، وقضوا معها ساعات اللذة ليس مثل لذتها ، ومن يستطيع ان يجزم بان زوجها — والد زوجة حسن الدمام — كان رجلا مغفلا ؟! لانه مثلا ، كان يرى الفضيحة من حوله ، فيسكت .. وكان يرى زوجته ترتدي الثياب الجديدة ، وكذلك بناتها ، دون ان يدفع من جيبه قرشا واحدا ! اتمطر السماء ثيابا ؟ لم يحدث ذلك قط ، وليس من المنتظر ان يتم مثل هذا الافتراض الغريب !!

الخلاصة ... انه مضغ سيرة حماته مضغا ، ولو بصعوبة .. كان كمن يتناول طعاما لم يلبث على النار كفايته ، وان كانت تلوح عليه امارات النضج ، وتقدم لخطبتها ، لقد لقي الصدود اكثر من مرة ، وكانت حماته في تلك الايام ، امراة ذات ثلاثة انوف وفي كل يوم تلقاه بانف مصعد ، فاذا ما تعب انفها من كثرة التصعيد ، استبدلته باخر ، اما والد زينب فكان يبتسم في وجهه ، ويدعه يقرا على ضوء ابتسامته ، ان الزواج مشكلة لا بد من ان يلقى المرء في خلال عبوره طريقها ، كثيرا من العنت والارهاق فاذا اجتازها بسلام ، شعر بحلاوة النصر ، في الليل الاول ، وقد يمتد هذا الشعور السعيد طيلة العمر

كانت احاديث عمه المرتقب — في حينها — اشبه بالبلسم الذي يخفف من الام الجراح ولكنه كان في كل يوم يزداد جرحا ، الى ان فاز بزينب فتممها الله على خير . ولكن ايامه اخذت تسوء ، وبخاصة بعد ان صار ابنه ، يستطيع ان يميز امه من ابيه ، وفي خلال ذلك ، وبالاضافة الى اكتشافه خلة السوء — ولو بالحدس — في حماته ، اكتشف شيئا اخر في زينب ، انها لا تستطيع ان تقنع بالقليل . هي تريد ان تعيش مثل ما كانت تعيش في بيت ابيها ، انه كان يقبل لو طالبته بمثل ما كان ابوها ينفقه على البيت ، ولكن انى له مواهب امها النابغة ، فيجلب المال من منابعها الدافئة ، مثل ما تجلبه حماته . وتقول لفتياتها الثلاث كعادتها دائما :

— تمتعن يا بنياتي بالحياة ...

لقد كان يملك سيارة شيفروليه ، انه يشتغل عليها طيلة النهار ، وفي الليل يشتغل عليها احد السائقين بالاجرة ، ان سيارات الاجرة تعطي مردودا لا بأس به ، ولكنه ليس ممتازا انه بالاضافة الى اجرة السائق ، ونفقات البيت .. وزوجته !! عليه ان يدفع القسط الشهري من ثمن

السيارة : خمسماية ليرة سورية

وبدأت المنازعات ، تعقد لواءها فوق سارية بيته الذي يخاله هادئا. ان زينب تريد مالا زائدا عن طاقته. وكذلك لا تستطيع ان تذهب الى بيت ابيها في اوقات معلومة ، وقد ذهبت كل محاولاته عبثا ، لمعرفة الساعات التي يخامره فيها الشك بان اهلها يشتاقون اليها ، ويريدون رؤيتها .

جاء مرة الى البيت ، فوجد صبحي ابنه يبكي ، لقد تركته امه .. وذهبت فانكفأ يسأل عنها فلم يجدها في بيت اهلها ، وكذلك حماته فقد كانت غائبة، ولكن زينب عادت بعد ساعة، مضطربة خائفة ، تلوح على محياها امارات الذعر والهلع ، وقد فسر هو من جانبه ذلك كله لانه قد عاد دون ان يراها ، فابتسم اكثر من مرة لدموعها اللؤلؤية وهي تجلو صفحة نفسها الوضيئة ، بعد ان اظهر لها امتعاضه ، وعنفها على تغيبها ، ولعلها قد منحته اذ ذاك من نفسها كامراة اكثر مما كان ينتظر رجل !!

ولكن هذه القصة ـ قصة تغيبها ـ تكررت اكثر من مرة . لم يرها في البيت ، ذات يوم اخر ، فغادره الى بيت اهلها ، وهناك وجد صبحي بين يدي خالته ، ولكن امه وامها، غائبتان لعلهما كما تدعيان ، قد زارتا طبيب الاسنان ، او القابلة، او الخياطة ، او صانع الاحذية ، فعاد بصبحي الى البيت ، هي غائبة مع امها ، هكذا تقولان ، ولكنه لا يستطيع ان يجزم ، واخذ يستعرض كل ما كان قد سمعه عنها ، وعن امها ، وفكر اكثر من مرة ان يصمها بالتهاون في الحفاظ على شرفه ، ولكنه خاف ، ولم يجزم،وهم بان يقذف الشيطان باكثر من حجر . كيف يجرؤ على ان يتهم زوجته زينب ام ولده ، تلك الفتاة التي رآها مرة.. فعلق قلبه بها ، وبذل كل ما ادخره في سني شبابه من اجل ان يجمعها معه تحت سقف واحد ، وفي سرير الزوجية المقدس ؟! يا لها من امراة جميلة ، وتريد ان تحيا حياة عميقة ، انه يسأل الله ان يمده بالرزق الوفير، ليدعها تتذوق لذة الحياة دون ان تهاب يوم فقر ، يطرق عليهما الباب بلا استئذان .

كان كثيرا يسألها ، هو لا يستطيع ان يسألها هكذا بصراحة ، انه يخاف منها .. يخاف جمالها .. يخاف ابتسامتها .. يخاف سحرها وفتونها انه يحيا من اجل ابتسامة تضيء شفتيها ، فتضيء ظلمة حياته .. هو يحبها ، ويصرح بهذا الحب . لا يخجل ولا يأسف لانه رجل .. يحب زوجته تلك التي تدعه يعيش هنيئا سعيدا ، كان ينصحها .. يتعطفها .. يرجوها .. ان تحرص على صبحي . ان صبحي ثمرة حبهما وسعادتهما ، وكل ما لهما في الحياة . وكان اذا قعد يتأملها وهي تعنو بصبحي وتغني له اغنيات قد لا يفهمها الا الاولاد ، ومن كان له قلب مثل قلوبهم .. يتعجب بل ينسى بالمرة .. كل ما كان يخطر على باله من اسباب الشك في سيرتها .. في سلوكها ، وفي زمالتها لحماته المحترمة ، تلك التي كانت دائما تلبس جيدا .. وتأكل لذيذا .. وتنفق عن سعة !!!

اكان رجلا بلا شخصية اذن ؟ اكان من اولئك الذين يفقدون ارادتهم امام اول ابتسامة ، وامام اول قبلة ، فيعودون عاجزين ، لا يستطيعون ان يثوروا وان يقذفوا بمن يستهين بهم وبرجولتهم بما تجمع في ايديهم من ادوات الكرامة والحقد والغضب ؟ ولكنه في اعماقه كان يشعر انه قوي اكثر مما يجب .. ولعله وقد شعر انه جد قوي ، فانه لم يستطع ان يتصرف بجزء مناسب من قوته ، بغية وضع حد اخير ، لما يعانيه من اسقام ، وخواطر سوداء وهواجس قد اخذت تراوده في كل ساعة من ساعات الليل او النهار .

لم يستطع حسن الدمام الا يفي بتعهداته للشركة التي تملك السيارة ، فباع سيارته وسدد ما عليه ، وبقي بين يديه بضعة مئات من الليرات ، وهي لا تكفيه لان يشتري عربة يجرها جواد .. فكيف بها بعربة لها اربعة دواليب يدفعها البترول ؟! وبقدر ما كان حسن الدمام يائسا ، قنوطا في تلك الليلة التي عاد فيها الى منزله ، وهو يحدث زوجته زينب عن قصة السيارة ، فقد اخذ القنوط بزينب ايضا من كل جانب ، واختفت وضاءتها وكذلك بسمتها ، وكادت تنهمر دموعها .. ورثت بكلمات بسيطة تلك السيارة ذات اللون الرمادي ، هذه السيارة التي عرفها كل اهل الحي ، نساء ورجالا ، وبخاصة صديقات زينب ولعل شدة الاسى ابقت على بعض الذكريات القديمة .. يوم كانت زينب وامها واخوتها وابوها بالاضافة الى زوجها وابنها صبحي ، يذهبون في نزهة طويلة او قصيرة ، انهم يومذاك كانوا يستطيعون ان يقلدوا الاغنياء دون ان يبدو عليهم ، انهم يتصنعون ، او انهم يتعبون من جراء تقليدهم ، شلة الموسرين في حيهم ، ولكن اليوم ، ان زوجها سوف يعود سائقا بالاجرة ، سوف ينتقل من سيارة قديمة الى اخرى جديدة . ومن سيارة جديدة الى سيارة امضت نصف عمرها . ومن سوداء الى حمراء .. الى صفراء الى كل ما يخطر على بال فورد ، وامثاله من ملوك السيارات ! !

لقد اختل نظام عمله ، بعد ان صار يعمل بالاجرة . كان قبل ان يبيع سيارته او قبل ان تضبطها الشركة اذا اراد الدقة في التعبير .. يعود مساء الى منزله ، ولكنه اليوم ، وبعد ان اصبح سائقا اجيرا ، لم يعد

يستطيع ان يتصنع الدقة في مواعيده مع زينب . وان كان كعادته السابقة ، قد يمر بالبيت في اوقات غير معلومة وقد يشاهد زوجته او لا يشاهدها . انه اخذ يشتغل طيلة النهار ، وكان يكتفي بان يكون غداؤه ساندويشة ، او صحن حمص او فول . ولكنـــه عندما يشتغل طيلة الليل كان لا يذهب الى منزله قط لينام فيه . وقد يمر في العاشرة او بعدها او قبلها ، ولكنه كان يرجو حماته ام زينب ان تتلطف مشكورة وتتفضل كي تبات عند ابنتها فتؤنسها وتبدد عنها وحشتها .

وانهمك في العمل الجديد ، وهو وان شعر بالفارق بين العملين دون ان يتحرك عن المقود ، الا انه تذوق طعم السيارة عندما تكون ملكيتها لسائقها وبين ان يكون سائقها اجيرا يتناول خمس ليرات عن عمله طيلة الليل او طيلة النهار ، وكان تعبه هذا لا يمنعه من الاهتمام باخبار زوجته وامهـــا ولكن لا الى حد ، يستطيع ان يصدق فيه انه مضحوك منه ، وان زينب ان كان لها وجه ملاك ، فلها جســد شيطان ، وان حماته قد تخمرت في راسها كل افكار السوء .. وتعتقت كل خمور الصبابات .

يذكر انه عاد في الحادية عشرة ذات ليلة ، وحاول ان يفتح البـــاب فاستعصى عليه فطرقه طرقات عديدة فلم يجبه احد ، فظن ان زينب ــ في هذه الليلة ــ عند حماته فمضى الـــى بيت اهلها ، وفي الطريق كان يفكر ، باتعابه وبهمومه ، وبحاله التي وصلت الى ما وصلت اليه ، من ذل وانكسار وافلاس ، بينما امرأة جميلة تتعذب ولا تلقى زوجها بجانبها في بدء كل ليلة ولا في نهايتها ، وعاود الطرق من جديد على باب بيت اهل زوجته ، فاجابه عمه بالذات ، ابو زينب ، ثم عاد بعد ان افاده ان زينب وامها ، قد خرجتا عصرا .. واوصاه بالصبر ، وعاود مرة ثانية الطـــرق ، ففتحت الباب زينب بثياب النوم ضاحكة طلقة

ــ اتذهب بعد طرقة او طرقتين . اننا في هذه الايام يا حسن ننام نوما عميقا ! !

ويذكر ايضا انه في اليوم التانـــي وبينما كان يهم بمغادرة سيارته الـــى حيث يجد الطعام الهنيء والوجـــه الوضيء ويلقى ولده صبحي استرعى انتباهه منديل احمر ذو اطراف بيض في طرف المقعد الخلفي .. فتفـــاءل خيرا من هذه السيارة التي عمل فيها ليلة البارحة لاول مرة . لقد تشاجر مع مالك السيارة التي كان يقودها .. تلك السيارة البنية ، ولكنه سرعـــان م: وجد عملا بعد ساعة من مغادرته تلك السيارة البنية ، ولكنه سرعـــان سوف تضحك كثيرا عندما يعلمها عن سيارته الجديدة هذه ، وعن رقمهـــا وماركتها .. يا لها من مجنونـــــة بهواياتها انها تريد كل التفاصيل وكل سيارة ، يشتغل فيها : رقمها ، لونها ، طرازها .

وعاد يقلب المنديل بين يديه ويبتسم لقد تذكر الان ، لعلهما الشابان اللذان اتياه ليلا .. الساعة العاشرة تقريبا ، وسالاه ان يؤجرهما سيارته لساعة ، وبعد ان استوثق من شهادة السوق سلمها المقود . لقد مرا بزملائـــه السائقين الثلاثة الذين كانوا ينتظرون بسياراتهم خلفه ، مثله مناسبـــة للعمل ، ولكنهم اختلفوا مع الشابين على السعر . اما هو فقد قنع بالاقل لانه اراد ان يقدم لصاحب السيارة في الصباح مبلغا لا بأس به .

خيل اليه انهما يريدان السيـــارة للنزهة في ضوء القمر ، او ان احدهما يريد ان يقودها في الطرق الخالية ، ليتقن قيادتها باشراف من زميله .. ولم يكن يخطر بباله ان سيدة جميلة سوف تنعم بركوب السيارة .. ورفع المنديل الى انفه ، فشم رائحة مسكرة توحي بان صاحبته امرأة فنانة . هي لذة كلها ! !

دس المنديل في جيبه ، ليهديـــه لزوجته . وهو بعد ليس اول ولا آخر من يجد في سيارة للاجرة مثل هـــذه الاشياء المهملة .. انه كثيرا ما وجد امثالها . ينساها ركـــاب عجلون ، وكثيرا ما يفتقدونها . فاذا سألوه اياها اعادها اليهم ولكنهم ان لم يعـــودوا دخلت في ملكيته من اوسع الابواب .

استقبله في البيت صبحي بصراخ حاد انساه كل ما فكر به طيلة الليل وكذلك المنديل الفريد ، وكذلك رائحته المسكرة . وبينما كان يحتضن ابنـــه صبحي كانت زينب تحاول ان تعــد لزوجها طعام فطوره . فكر حسن ماذا لو ناول ابنه صبحي قطعة سكاكر مما تعمر به حقيبة زوجته زينب ؟ ثم حاول ان يبحث عن قطعة سكاكر من الحقيبة فلم يجد لاول وهـــلة ، فامعن في البحث الى ان اهتدى الى قطعة شوكولاته ، ناولها لصبحي وترك المحفظة دون ان يغلقهـــا ، اذ بزينب تهجم عليه في هيئة جد وتختطـــف المحفظة من بين يديه ، وتضحـــك لاخذه قطعة الشوكولاته التي كـــانت تصبغ نصف وجه صبحي عـــلى اقل تقدير ، وبينما كانت زينب تتفقـــد حقيبتها وحافظة نقودها باحثة عـــن قطعة اخرى لصبحي ، مطت شفاهها بدلال يغرى بالجريمة وسألت زوجها بشيء من الحمق الظاهر :

ــ ... والمنديل يا حسن يــــا حسن ، اين خبأته .. انه لا يصلـــح للرجال .. اتريد اهداءه لاحـــدى خليلاتك العديدات ؟ !

فاجابها حسن بدهـــشـــة الزوج البريء :

ــ اي منديل يا زينب . لا علم لي بشيء . صدقيني لم اخذ من محفظتك سوى قطعة الشوكولاته ؟ !

ــ المنديل الاحمر ذو الاطـــراف البيض .. منديلي ! !

حلب — علي بدور

حبي

✳

حُبِّي .. الذي سقيته من دمي — ومن حياتي ، كأس عطر ونور
هذا الذي وزعت اطيافه — على التفاتات الصباح النضير
يرش في الدرب اناشيده — فيرقص الدرب ، ويغفو العبير
وينحني يزرع من روحه — ورد الاماني في ضفاف الغدير

* * *

حُبِّي هذا ، لم يعد ، مثلما — كان ، حديثا خافتا في الصدور
يهمس باللقيا ، ويحنو على — الظلال رخوا كالنسيم الغرير
يرتاع من لفتة اجفانه — ان اومأت للسرِّ خلف الضمير
ويحذرُ الانجمَ — ان شاقه — طيف من الليل — نديٌّ الشعور

* * *

حبي : انطلاق النور عند الضحى — وروعة اليقظة عند البكور
اقوى من الحياة ايمانه — ومن صمود الدهر فوق الصخور
يسير ، فالدنيا على ضوئه — انشودة تطغى ووحي يثور
ويلتقي بالشوك في دربه — فيحطم الشوك ويجني الزهور

* * *

حبي : حياة الحب في موكب — الشمس وسرُّ الابد المستنير
عاش مع النعمى ، وطارت به — احلامه في أمنيات النسور
الى ربيع وادع ، لم يدع — في الارض وحيا، لم تزره العطور
وخلَّد اللذة حتى انثنت — تمرع بالاحلام وعيَ الدهور

* * *

حبي : يا ليلاي ، يا فرحة — الاضواء ، يا نبع الحياة الطهور
خلقتِه في خاطري روعةً — للفن تستلُّ حديث العصور
وكنتِ بالامس اطار الهوى — وكنتُ لونا باهتا في السطور
ورفَّ الفجر على خاطري — وانتفض الحبُّ على كل سور

* * *

وعاد حبي في عروق الضحى — منطلقا يحيا بقلب كبير
يهفو الى الفجر ، يثير السنا — الريان في اهداب جفن كسير
ويحضن الوجود ، في روحه — عاطفة تسمو وفكرا ينير
نيلاه : ما في الكون من فتنة — غرقى بامواج الصباح النضير

نزيل العراق — **محمد حسين فضل الله**

منازع العلم الحديث : قصة الانسان

بقلم هنري موراي

استاذ السيكولوجية السريرية في جامعة هارفرد

ترجمة يوسف اسعد داغر

° ° °



يحب الناس شيئا حبهم وضع القصص عن انفسهم وهي قصص طالما جسموها وحيزوها واقعيا في الرقص والغناء والعبادة، او في الحرف او الكلمة مطبوعا او منقوشا في وشي بديع من بديع الزخرف، اومفرغا في هذه النظريات والمذاهب التي طلع بها العلم والفلسفة على تعاقب السنين والاجيال .

ومن الخصائص والمميزات التي يتصف بها هؤلاء المجسمون لاعمالهم ومآتيهم التي يجدر ملاحظتها منذ اللمحة الاولى ، ما فيهم من نزعة قوية لتعطيل عقولهم من اية قوة او قدرة على الخلق والابداع العفوي . فهم يعطلون لها ، بدء ما يعطلون ، عندما يحلو لهم ان يصوروا انفسهم مخلوقات لا طاقة لها على الخلق والابداع ، فيظهرون مظهر دمى لا اكثر اريدت على اقدار ومصائر محتومة ، وفقا لما رسمته لهم قوى جامحة ، او الالهة او الميكانيك ، او الوراثة او البيئة . ثم يعطلون لها مرة ثانية عندما يدعون زاعمين ، بان هذه الصور يصورون بها انفسهم ، ليست من بدع الخيال ، بل اوصافا امينة ، مطابقة للواقع ، او صورا طبق الاصل . او نسخة حية للواقع المحيز .

اما ظهور الانسان وتكوينه ونشاته فدونه حكايات وحكايات قديمة قدم الانسان نفسه ، وهي قصص لا اود ان اتعرض لها بكلمة هنا ، اذ انها تخرج تماما عن الصدد المرسوم لي . فمن واجبي ان ابدا بقصة حديثة نسبيا ، هذه القصة التي تقول ان الانسان انما انحدر ــ او بالاحرى ــ طلع من ادنى الاصول ونسل من احط الاباء ، فهو مزيج صارت اليه ، في نظر القائلين بهذه القصة ، صدفة واتفاقا ، عناصر كيماوية من الجنس الرخيص المبتذل ، تفاعلت وانفعلت ، كالهيدروجين والاوكسجين والكربون والنتروجين . فبدلا من القول بيوم واحد اطلعه ، فقد اطل واستهل بعد ان حبلت به السنون مليارين من الاعوام او ما اليهما من الازمان ، في سلسلة من الاشكال والقوالب تعاقبت عليه دون ما حد ، اصارته في النهاية ، في اخر المطاف ، الى ما نراه عليه اليوم من صورة ومثال. وبدلا من ان يطلع به الوجود كما اطلع آدم مثلا في حالة مثلى هي التي ينشد ، اخذ يدرج من ادنى الى اعلى ، الى الاعلى ، فالاسمى ، مكتسبا في تدرجه وتطوره المتتالي قوى ومناقب ، وملكات وخصالا ، بانتقاله من حال دون الى حال اكرم ، ومن طور الى طور ، دورا بعد دور ، في هذا الحقب الهلكية التي اصارته ما صار فيه واليه .

ان نظرية النشوء والتطور التي دان بها دارون وعلم والتي سار عليها السمك في الماء والزحافات في الخفاء والطير في الهواء وغير ما ذكرنا من لون او صنف وعرق في الحيوان بما فيه الانسان تشدد على عنصرين هامين : اولهما ما طرا على هذه الحيوانات وما اعترى الكائنات الحية من تغييرات طفيفة عارضة لا حد لها ولا حصر ، وثانيهما بقاء واستمرار هذه الاجهزة التي عرفت ان تفيد من هذه التغييرات ، وبالتالي زوال وانقطاع تلك التي طرات التغييرات عليها او وقعت بها فكانت وبالا عليها . وعندما برزت ، في منتصف القرن التاسع عشر ، النظرية القائلة بتدرج الانسان منذ ان برز على الارض بشكله البدائي المتنازع فيه فرأى الناس فيها انتقاصا من محتده وحطة من اصله وفصله . اما القول بتدرجه من شكل نسناس ليفضي به الى قوامه المنتصب الراهن ، فلم يكن ليأتلف قط وجمال هذه النفس الزكية الذي مسخ وزال منذ ان حاد وزاغ عن صورة اب الاباء آدم . والنظرية الجديدة جاءت تصدع من جديد قوة العقل فيه وتصميه اذ تقتطع منه خلتين طالما استمسك بهما واعتصم ، هما : القول بصنيع الله ولبس صورته ، اي القول بوجود يد خفية تحركت فوجهت الحوادث وحتمتها على كيف وكم ، والثانية ، العلة الغائية او القصد الذي قال به ارسطو (1) وعلم ، وهو شيء ، اقرب ما يكون بمقصد الانسان وغايته الاخيرة . وهذه الملايين من التغييرات التي مر بها الانسان في تدرجه الصاعد خلال ملايين السنين التي درج فيها ، يمكن النظر اليها كتغييرات عرضية ، وبالتالي خالية من اي هدف وغرض .

وبالرغم من تشديد دارون على عامل الحادث الطارىء او الصدفة في نظرية النشوء والارتقاء التي طلع على العلم بها فقد رأى بعضهم فيها تشجيعا لاعتقادهم ان جميع

---

(1) ارسطو او ارسطاطاليس (٣٨٤–٣٢٢ ق.م) اكبر واشهر واخصب فلاسفة اليونان ومن اضخم واقوى العقول البناءة التي عرفتها الانسانية ، عبر تاريخها الطويل غذت فلسفته اليونان كما غذت ولقحت الاجيال المتعاقبة في القرون الوسطى : في الشرق الاسلامي والعربي والغرب المسيحي فلقب بالمعلم الاول . كانت فلسفته اساسا للفلسفة المدرسية

الظواهر البيولوجية ، بما في ذلك سلوك الانسان ، يمكن اعتبارهامظهرا من مظاهر خصائص المادة الفيزكيمائية . والكلمة التي جاؤوا بها رمزا او تعبيرا عن هذا الاعتقاد هي «الجهاز» اذ ان الطبيعة الانسانية ليست سوى جهاز كهربائي غاية في التعقيد .

وقصة الانسان هذه ، باعتباره جهازا فيزكيمائيا ، هي القصة الثانية بين القصص التي ارويها لك عنه . فهي تنتقص الى اقصى حد من قيمته الذاتية ، وتمعن اكثر من النظرية الداروينية في ايهان رغائبه ، اذ انها تقول بان الانسان انما جاء مفسودا او ساقطا . وبحسب النظرية الالية هذه ليس فينا نحن البشر من القدرات والكفاءات ما يؤهلنا لاية مثوبة ولا لاي عقاب او جزاء . فنحن بحسب النظرية الالية ، آليون ، تلقائيون لا اكثر ولا اقل . وبهذه الصفة ، اي باعتبارنا آليين تلقائيين نصبح ادنى بكثير من هذه الدمى او « الخرضاوات » ، الدقيقة التي يطلع علينا بها العالم اليوم . ومع ان بعضهم استساغ هذه النظرية واستطابها فقد كان ، مع ذلك ، من الصعب على بعض المعد هضمها وتمثلها لعلمهم ان الالة لا تنمو ولا تكبر بعد ان لا تأكل ولا تشرب مما حولها لتجدد نفسها ، ولا تبدي عادة ، اي رد فعل او ارتكاس ، ولا تتضام فتتكاثر وتتناسل او تربي لها صغارا وتقيم منها مجتمعات . وعدم التوفيق في اختيار كلمة « جهاز » للتعبير عن هذه القصة من القصص التي جيء بها لتفسير طبيعة الانسان ، لم يبد واضحا الا حينما بطل الاخذ بالميكانيك الكلاسيكية (او الميكانيك النيوتونية) اساسا لعلوم الفيزياء والكيمياء .

ان الافتراض غلطا بامكان التعبير عن طريق مصطلحات ميكانيكية مجردة عن التغييرات العضوية المتتالية التي تعاقبت على الانسان عبر الاجيال ، امر يجب الا يكون وقع لو لم تكن الاوضاع والمصطلحات التي وضعها دارون تجاهلت تماما واخفت ما في الطبيعة من قوة خلاقة هائلة وهي قوة لا ترد وبالتالي غير ميكانيكية . ان النظرية التي قال بها دارون تفرض كما راينا حدوث تغييرات في الاشكال . ولكن ما عسى ان يكون تغيير الشكل سوى ظهور العناصر المقومة بشكل اخر ، بقالب وحيد ، احتفظ بشكله وقوامه المعين الى حين . وبهذه الكلمات نفسها تحددت قابلية الخلق وتعينت .

والصورة البدائية لنظرية التطور الخلاق او المبدع — وهي القصة الثالثة من القصص التي نرويها لك عن اصل الانسان ونشاته وتكوينه — هي تلك التي جاء بها برغسون (٢) عندما وضع بين ايدينا نظرية « الاسهام المنوي » Seminal Contribution منذ ظهور النظرية المذكورة ، حاول عدد من كبار المفكرين ، بينهم لويد مورغان ول. هوايت افراغ هذه النظرية باشكال شتى تختلف قليلا او كثيرا من حيث الاصالة . وهذه النظرية تقول بصورة عامة مجملة ان عمل الطبيعة التطوري هو عمل تحولي متصل ، الا انه بطيء يكاد لا يشعر به ، تارة مكمل ، ضام وطورا قاطع ، فاحم ، وان بين هذه التحولات المكملة الضامة ما هو خلق وابداع لا مثيل له ولا نظير في التاريخ من قبل . وقد يجري هذا من الوجهة الكيماوية العملية ، باندماج ذرات ودقائق وبلوريات اكثر تعقيدا وتركيبا من الاولى ، ولربما بعد ذلك بكثير ، باندماج كائنات حية بعد طلوعها بكثير ، كبعض المورثات الجديدة بما اليها من غشاء البروتوبلازما الذي يغلفها ، ثم بعد هذا الطور البيولوجي اللاحق ، المورثات وما آلت اليه من تطورات وتحولت الم بها اثر تفاعلها بالمحيط والبيئة ، في اشكال وقوالب وقابليات ، وطاقات ،وادمغة ، ووعي حيواني مما لم يكن له شبيه من قبل . وهذا ينطبق ايضا بنفس القوة على الحقل الاجتماعي وما ظهر فيه من فئات وعلى جملة من الشبكات العصبية الرابطة بين اعضائها المختلفة ، وفي الحقل الفكري والرمزي مما يتعلق بنشأة الكلمات وطلوع الافكار ، وهذه الافكار الجرثومية الاصيلة التي برزت من خلال هذه التعابير التي لا تحصى والتي عبرت عنها هذه الاساطير والاعتقادات والاراء الفنية ، والتصديقات الادبية والقانونية والرسوم الفنية . وفي بروز احداث الحياة ومظاهرها الموصوفة هذه لم تكن العمليات النشوئية البارزة عمليات آلية عكسية بل بناءة غير عكسية بعد وقت طويل ربما تجاوز مليون سنة واكثر .

ونظرية دارون التي تقول بتنازع عنيف في سبيل البقاء وزحام لا رحمة فيه بين الاجناس لبقاء الاصلح ، تلقفتها بعض العقول كانها صدى من الاصداء المنطلقة من فلسفة هوبس (٣) التي تقول بتنازع الناس الواحد منهم ضد الاخر . وهذه النظرية الموصوفة على هذا الشكل وقعت من نيتشه (٤) موقع النغم الشجي المثير فحفزته واخرجته الى ما وراء حدوده ليطلع على الملأ بابشع قصة من هذه القصص التي تتعلق بتكوين الانسان وطبيعته هي القصة الرابعة من سلسلة الاقاصيص التي نحن في سبيل عرضها الان .

(سكولاستيكية) التي يمثلها خير تمثيل توما الاكويني وبونافنتورا والبير الكبير وغيرهم .

ولد في مدينة ستاجيرا . درس على افلاطون (٣٦٧ — ٣٤٣ ق.م) وعهد اليه الملك فيلبس المقدوني تهذيب الاسكندر الكبير . انشأ في اثينا مدرسة فلسفية تعرف بمدرسة المشائين . péripatéticiens تعاليمه الفلسفية مثبوتة في الدروس والمحاضرات التي كان يلقيها على تلاميذه فتألف منها كتبه المعروفة : المنطق — المتفيزيقا — العلم الطبيعي — علم الاخلاق — علم السياسة — علم الخطابة — علم الشعر . عرفت فلسفته عند العرب ابان ازدهار المدنية الاسلامية في عهد العباسيين شرحا وتفسيرا واقتباسات ، كما نقلت في الاونة الاخيرة بعض كتبه هذه في مصر مثلا الى العربية ، مترجما ترجمات لا يمكن ان يعول على اكثرها بشكل من الاشكال لما فيها من الظنة والاضطراب والبلبلة .

(٢) هنري برغسون (١٨٥٩—١٩٤١) ، فيلسوف فرنسي من كبار الفلاسفة المحدثين ولد في باريس . تولى تدريس الفلسفة في كلية فرنسا ووضع نظرية فلسفية تعرف ب « البرغسونية » اثبتها في كتبه التالية : رسالة في معطيات الوجدان البديهة (١٨٨٩) الذي ترجمه الى العربية الدكتور كمال الحاج — بيروت والمادة والذاكرة (١٨٩٧) — الضحك (١٩٠٠) الذي نقله الى العربية الدكتور سامي الدروبي (١٩٤٧) — والتطور الخلاق الذي ترجمه الى العربية بديع الكسم (١٩٤٩) والديمومة والمواقتة (١٩٢٢) — الاحلام — الذي ترجمه الى العربية الدكتور البير نادر في مجلة الرسالة ، مجلد ١١ و١٢ (١٩٤٢ — ١٩٤٣) . وله كذلك الطاقة الروحية الذي ترجمه الى العربية سامي الدروبي (١٩٤٦) — و منبعا الاخلاق والدين — الذي نقله الى العربية سامي الدروبي وعبدالله عبد الدايم ، في القاهرة ، سنة ١٩٤٥ .

اما الفكرة الرئيسية في قصة الانسان الجديدة هذه يطلع علينا بها نيتشه ، فالتأكيد بان العامل الاساسي في تطور النشوء ليس قط الرغبة في البقاء ، بل الرغبة الملحة في السلطة والتمتع بها ، وفي رغبة الناس للامتلاك والتصرف دونما رحمة ولا شبع ، ونهمهم للاخضاع والتحكم والقتل والابادة — اذا ما حملوا على ذلك — لما يقع تحت متناولهم او في حيازة البيئة التي عليها يسيطرون ، سيان ان يكون ذلك جمادا او حيوانا او انسانا .

فبعد الذي رأينا في حربين عالميتين ضروسين اكولين برز فيهما الانسان اقتل بني جنسه وافتكهم على الاطلاق ، وفرض على العلماء عنده والاختصاصيين شحذ قرائحهم وقدح زناد الفكر ليطلعوا عليه بادهى وسائل التقتيل والافناء بالجملة ، نعم بعد حربين هاصرتين من هذا العيار الثقيل ، ليس في مكنتنا ان ننبذ جانبا ونطرح بين المهملات نظرية نيتشه بهزء وهزة كتف ومد طرف اللسان . ان نظريته يجب ان تفرغ من جديد ويجري تعديلها بنظرية اخرى لتنسجم والنتائج الاساسية الاخيرة التي ادت اليها نظرية دارون حول النشوء والتطور وذلك للوصول الى القرارين التاليين ، الاول : الاخذ بمبدأ بقاء الاصلح نهائيا وتطبيقه ليس على الافراد كما اقترح عدد من العلماء النشوئيين ، بل على الجماعات والهيئات المتنافسة المتبارية فيما بينها، كالقبائل والامم والدول . والثاني : التعاطف المتبادل والتعاون المشترك والتآزر بين اعضاء فئة او جماعة واحدة — هذه الغرائز او الملكات التي يتجاهلها نيتشه تجاهلا تاما — اتأمت بالضرورة ، التضامن بين افراد الجماعة الواحدة ووطدت فيهم روح الكفاح النضالي واستثارت رغبتهم في البقاء والاستمرار فيه . وبعبارة اخرى ان تغييرا اساسيا واحدا من هذه التغييرات التي طرأت على الانسان منذ عهد سحيق في مصهرة الزمن ، برزت على شكل تآلف قبلي بين عدد من الاسر اكسبها من القوة ما لا قبل لفرد واحد بمثله ، وهو نظام اجتماعي تمتع ببعض المرونة وتميز ببعض الفوارق في الوظائف التي يؤديها الافراد ، وله بالتالي قدرة اكبر على مواجهة شتى الاعمال المترتبة عليه وفقا للازمات التي يتربص لها وبها .

فاذا ما اعتمدنا ، منذ الاساس ، العناصر التي ينهض بها الدليل، في نظر السر ارثر كيث(٥) تبين لنا ان الجماعات الفضلى الناجحة يبدو مسلكها ذا وجهين مزدوجين كالالهة جانوس تماما ، وجه قسماته تدعو للخضوع للسلطة ولاحترامها والتعاون معها ، وللولاء لها ، ولحسن الاستعداد نحوها ، وللتضحية في سبيل الجماعة ، والاخر بادي الانقباض والتجهم يهيب بصاحبه للنفرة ويدعو للفتك باعضاء الجماعات الاخرى العدوه غير الموالية . وعلى فرض تساوي الاشياء ، يمكن لنا ان نقول بان الفئات اوالجماعات هي التي دشنت هذا الطور من الصراع الثنائي ونهضت به وحملته الى ابعد حد واورثته تباعا الاجيال المتتالية ، فتوارثته وتناقلته جيلا بعد جيل ، تقويه وتشد منه ، الى ان اصارته على ما نراه عليه من جاش وبطش واستشراء .

ان نظرية التطور القبلي تساعدنا على تفهم الاسباب التي جعلت من الانسان كائنا اجتماعيا اكثر منه كائنا معزولا منزويا كهذه الخلائق التي تكفي نفسها بنفسها ، ولماذا ، باعتباره كائنا اجتماعيا هو ، في وقت واحد ، انسان اليف ووحش كاسر قاس . والدليل على خصائصه الاجتماعية ، هذه الخصائص التي تطبع قصة الانسان الخامسة وتميزها هي الحوادث المعادية التالية كتربية معظم الناس ونشأتهم ضمن مجتمع خاص وعلى امور تؤذي مصلحتهم راضين مع ذلك على ما هم عليه افراد الجماعة من ترابط وتكافل ليمتد مدى الحياة وان معظم المباهج والملذات التي ينعمون بها مردها الى هذا التفاعل المشترك القائم بين اعضائها تسودهم عوامل السلام والوئام بين بعضهم البعض يشتركون بشعور واحد ويأتمون بمثل واحدة وتجيش فيهم منازع واحدة ويختارون حتى في ابعد ما تصل اليه مطامعهم ومراميهم الخفية الامل الذي يبعث فيهم البهجة ، وجل ما يطمعون فيه تحبيذ بني جنسهم لهم والتصفيق لاعمالهم ، وطيب الاحدوثة والذكر الحسن بعد الموت ، « مرض كل نفس ابية كريمة » . وهذه السلوكية المزدوجة الخلق البادية على الجماعات والفئات ، مسؤولة الى حد ما عن الفشل الذي رافق كل المحاولات التي قام بها الانسان لالغاء الحروب والقضاء عليها وما تميزت به هذه المحاولات من عدم اخلاص والتواء في القصد ومن اعتناقها اعتناقا نصفيا . كذلك هي مسؤولة من جهة ثانية ، عما نراه في الانسان من رغبة ملحفة ، بالرغم مما يبدو عليه احيانا من استعداد ، للقضاء على الاسباب التي يخشى منها كثيرا ان تقضي عليه ، فيكافح في سبيل وطنه ومجتمعه الى اقصى حد وببطولة مثيرة

---

(٣) توماس هوبس ١٥٨٨—١٦٧٩ فيلسوف انكليزي درس في اوكسن ونال منها درجة بكالوريوس (١٦٠٦) نفي الى فرنسا لمبادئه السياسية (١٦٤١—١٦٥١) ثم عاد الى انكلترا ليقوم بسلسلة من الاسفار والرحلات في اوروبا ، اتيح له ان يجتمع خلالها بـ غاليليو ، وغاسندي ، ومرسين . ربطته اواصر الصداقة بهارفي وبن جنسن وكولي وغيرهم . اهم مؤلفاته : الطبيعة البشرية (١٦٥٠) ولفياتان الذي ضمنه نظرية العقد الاجتماعي من كتبه الاخرى : حول الانسان الذي ظهر عام ١٦٥٨ .

(٤) فريدريك نيتشه ١٨٤٤ — ١٩٠٠ فيلسوف وشاعر الماني تخرج من جامعتي بون وليبزيغ حيث انصرف للتعمق في فلسفة شوبنهور . درس الفيلولوجيا الكلاسيكية في مدينة بال (١٨٦٩ — ١٨٧٩) حيث تعرف الى وغنر ولازمه وتتلمذ عليه ثم انقلب عليه وعارضه بعنف في كل ما جاء به من نظريات حول الفن والفلسفة كما عارض فلسفة شوبنهور نفسه . انكر الدين وجاء بنظرية : اخلاق المتحكمين وهي نظرية التكمل الانساني عن طريق فرض الذات بالقوة وتمجيد السوبرمان او الانسان الاسمى . وقد كان لتعاليمه وللمبادىء الفلسفية التي قال بها وعلم اثر بارز على موقف ووضع الدولة الالمانية في الحرب العالمية الاولى وفي نظرية الحكم في الريخ الثالث .

اما مؤلفاته فعديدة تتقاسمها الفيلولوجيا ، والموسيقى والتاريخ اليوناني ولا سيما الفلسفة

(٥) — ارثر كيث ١٨٦٦ — عالم بريطاني من مشاهير علماء الانثروبولوجيا في العالم اليوم . ولد في مدينة ابردين في اسكتلندا . وهو من كبار الاختصاصيين في علوم اصل الانسان ونظرية النشوء والارتقاء . له في الحقل العلمي عدد كبير من الكتب والمؤلفات ، منها : « المدخل الى دراسة القرد الانسان » الذي نشر عام ١٨٩٦ ، وعلم الاجنة البشري واشكالها (١٩٠١) نماذج قديمة للانسان (١٩١١) جسم الانسان (١٩١٢) الداروينيةونقادها (١٩٣٥) حول اصل الانسان(١٩٢٧)

للاعجاب ، اذ لا يرى اية غضاضة في ان يقتل ذودا عن هذا الوطن ودفاعا عن حياضه ، المئات بل الالاف من الناس ، بينما يعرض نفسه للهوان وشر العقوبات والذل اذا ما صرم بيده قصدا وعمدا ، احد رفاقه من ابناء جلدته او بلدته او مجتمعه .

ولا بد ان نفرض هنا ان الجماعات الغلابة المنتصرة هي ، على الغالب ، تلك الجماعات والفئات التي عرفت ان تتمثل وتستثمر، الى أقصى حد، ما استقر في روع الانسان من صور البطولة والشجاعة والاستمساك باسباب الحياة والرغبة في الامتلاك وشهوة السلطان والسيطرة وحيازة السلطة في افرادها .

ولكن ما معنى شهوة السلطان ؟ فالسؤدد او السلطان الذي يتهالك الفرد في تحييزه والفوز به والذي يدوخ بخاره الدول والامم اذا ما هب ريحه في منافسها ومشامها هو وسيلة ليس الا ، وسيلة الى غاية وليس غاية في حد ذاته . ولاي امر السؤدد ؟ ، ولاي غرض السلطان ؟ فالقائل بالتطور الخلاق يجيب على هذا السؤال بان السلطان لازم لتكوين وانشاء وحدات اجتماعية اكبر واضخم تكون في مأمن المعاطب والمخاطر تسيطر على مساحات من الارض وتستثمر من الموارد ما هو اوسع واغنى واوقع ، اوبعبارة اخرى ، فالسلطان وقد استشاطت به النفوس وجاشت به الاطماع ، يصرف في سبيل النمو والتوسع والامتداد عن طريق الغزو والفتح وتدويخ الشعوب والبلدان وضم ما ضعف منها واستدق شأنه ، وحينا بصورة ادعى للسلام ، بالتحالف والاتحاد مع وحدات اخرى . وفي التاريخ شواهد كثيرة من هذا النوع كضم الجماعات البدائية : من افخاذ الى بطون ، ومن بطون الى قبائل ومن قبائل الى دويلات ومن دويلات صغيرة تدمج بعضها ببعض الى دول كبرى فاكبر الى ان يتم فيها اكتمال الزمن فتصير الى التفسخ فالانهيار فالزوال . الا اننا لم نر للان ، بشيء من اسف ، اية مطالبة بانشاء سلطة واحدة لتشمل العالم باسره، ولم تتخذ بعد اية خطوة ولم ترتسم اية خطة في النوادي السياسية ، تمهد لقيام حكومة عالمية وان كان خطر لبعض المصلحين ، في ما مضى ، ان يعملوا لهذه الفكرة ويوسعوا لها بين الضلوع والقلوب ، كما انه لم تقم قط في دنيا السياسة اية حركة واسعة لتأمين الزمالة الانسانية الشاملة التي دعا الى تحقيقها عدد من كبار رجال الدين عبر الاجيال.

ان النظر في طلوع وظهور اقوى الجماعات شكيمة واقواها بطشا وباسا يدعونا بالتالي للنظر في تغيير اوتحول مهم اخر جاء نتيجة بارزة من نتائج نشوء هذه الجماعات والوسائل المثلى التي ادت الى ظهورها . واني انما اريد ان اشير هنا والمع الى لغة الرمز والى القوة العاقلة التي يصدر عنها هذا الرمز وينبعث ، ولا سيما قدرتها على توليد افكار ممزوجة ببعض الوعي والتحسس بما فيها من معنى ومدلول . ولما كانت قدرة الانسان على استيلاد الرموز والتعبير عنها هي الموهبة التي تميز بالاكثر الانسان عن الانواع التي تقدمته ، كانت هذه الملكة والحالة هذه ، موضوع القصة السادسة من قصص الانسان التي نرويها لك.

فعندما اخترع الانسان اللغة ، اخذ الشعور بالهدف او التحسس بالغاية والمقصد يلعب دورا بارزا في التطور وحركة النشوء والارتقاء . فاللغة ، مكنت الناس من اطلاع بعضهم البعض على ما يبدو في ضمائرهم من صور ومرئيات وخاطرات ، وعلى ما يهذون به من رغبات ، وما يضعون ويصممون من منازع وخطى ، واحكام وقواعد ، حتى اذا ما جرى تظهيرها وتبلورت على شكل ما بعد ان يتناولها النقاش والبحث المشترك ، قضت الجماعة بقبولها وتبنيها . فالافكار ، ولا سيما ما تعلق منها بالمعاد والاخرة وغيرها مما يعود للاخلاقية هي بمثابة المورث الطافر في النشوء الفكري والتطور الثقافي .

كم من فكرة كريمة وحلم معسول فعلا في النفس فعل السحر الحرام او ما كان في شبهه من قريب او بعيد، فاقامت الناس واقعدتهم فاندفعوا يلوحون بها عاليا مؤثرين ان يجودوا بسبيلها بانفسهم رخيصة فيعرضون بلدانهم وابدانهم للطعان وللحرب ذودا عنها . فتاريخ البشر يفيض بمثل هذه الشواهد للتدليل على ما قام من صراع عنيف بين الافكار والاحلام والمثل السامية . كم قد رأينا وكم قد لمسنا مجموعة من الافكار واضمامة من النظريات تعمل في الناس عمل القبائل والشعوب في انهاض مطلب وتوسيع رقعة وانبساط فرجة تحت الشمس ، وذلك بعد ان تلقي على غيرها من الافكار والنظريات وشاحا صفيقا من الهزء والازدراء فتحاول طمسها واخضاعها لفلسفتها وتعاليمها او افراغها وصبها في قوالب جديدة . وما احسن من قال ان الحروب الكلامية والايديولوجية او

الدينية كثيرا ما كانت وراء حروب لاهبة اكلت اليابس والاخضر ثم ، لنلاحظ من جهة ثانية ان الكلمة ، مكتوبة كانت ام محكية ، التي تحمل في طياتها وتحت حروفها : علم ما لا يعلم ، وعلم البيئة التي تحيط بنا وكيف يجب ان نقف منها ، واخبار القبائل التي مرت في سالف الدهر ومآتيها وتقاليدها ، وعلم القوانين والشرائع والعادات والاخلاق ، هذه الكلمة يمكن تناقلها من جيل الى جيل ، مدى الآماد والدهور

ان التراث الثقافي ، باعتباره قوة تطويرية ، قد عمل واثر باسرع مما عمله واثر به التطور البيولوجي ، وان كان بشكل دونه في الاهمية . فالاطفال ، في هـذه الفترة ، هؤلاء الاطفال الذين انجبتهم البشرية منذ قبل عشرة الاف سنة مثلا ، لا يختلفون كثيرا ، ان صحت فراسة خبراء الاطفال في تطورهم شكلا وطاقة ، عما هم عليه اطفالنا اليوم . ومما لا مراء فيه ان اطفال هذا الجيل ، بما ينعمون به مـن تراث ادبي وفني واجتماعي وثقافي يختلفون كثيرا عمـا كان عليه قرناؤهم في السن من نحو عشرة الاف سنة مضت من الوجهة العاطفية ، والانفعالات الداخلية . وعلى هـذا النحو يتباين اليوم في جميع هذه المظاهر وما اليها ، الاقوام الذين تمور بهم اليوم كل من آسيا وافريقيا واوروبا واميركا ، اذ انهم ذراري سلالات مختلفة وتقاليد خضرية متباينة .

هذه الوقائع التي تمدنا بها اختباراتنا الطويلة عن نمو الاطفال وهذه التجارب الدقيقة التي اجريت في الحيوانات على اشكال لا تحد ولا توصف ، تقودني الى قصة الانسان السابعة التي تقول ان الانسان هو صنع يديه وابن نفسه وان ما يأتيه اليوم مقتبس ، تلقنه منذ الصغر ، وان مـا اقتبسه تلقينا وعلما ، مرده على الغالب ، الى ما تعاقب عليه من حلو ومر ، وغرم وغنم ، في جهد متصل ، والى ما لقيه ، على ممر السنين والاجيال والحقب من مثوبة وجزاء على يد والديه وذويه وغيرهم من عوامل التحضير والتمدين وعناصر التثقيف . وهذا القول المجمل الذي جاءت التجارب المدهشة التي قام بها بفلوف (٦) في روسيا ، والاختبارات التي قام بها في اميركا كل من وطسون (٧) وثورندايك (٨) وطلمان (٩) ، والاكتشافات الاخرى التـي قام بها عدد لا يحصى من علماء الانثروبولوجيا ، كلها مهدت السبيل للنهوض بالمزيد من الابحاث الدقيقة في العقـود الاخيرة . ولعل القرار الاساسي لاثبات صحتها جملـة وتفصيلا ، جاء من جهة ، ردا على نظرية ماك دوغال حول الغرائز النهائية ، وهي احدى صنور القصة الخامسة التي رويناها ، التي اولت من وجهة النظر الاميركية ، عامـل الوراثة دورا اكبر بكثير مما يستحق كما بخست المحيط

الاجتماعي حقه تماما . الا ان الفكرتين لا تنفي احداهمـا الاخرى . هنالك الى هذا ، دليل واضح على امكان التوفيق بين الفكرة القائلة بان الاطفال يولدون وفيهم قابليات ممكنة عديدة ، لا كما يحلو لماك دوغال الافتراض عندما يعـرض حالة خاصة من الاوضـاع ذات العمـل المؤثر . فالقدرات الخاصة وطرق السلوك الخاصة يجب ان تكتسب عـن طريق الاختبار .

وهذا الفهم او التفهم الذي يحصل عليه ، مما يتصل بتعقد الشخصية الانسانية والذي ينتج عـن الاختبارات الجرحية في الطفولة هو قسم ضئيل مما نحن مدينون به للفكر المولد الذي تميز به فرويد . ودينا نحوه يبدو على اتمه اذا ما قسناه بهذه السلسلة من الاستنتاجات العقلية التي هي من الكثرة بحيث يستحيل علينا ظفطها للخـروج منها بنظرية فردية واحدة . فالاشارة هنا الى ثلاثة مـن هذه الاستنتاجات الاكثر انتشارا وشيوعا عنده ، هي كل ما يسمح لنا الوقت المتروك لنا الوقوف عنده وبحثه بعض الشيء . فالاول منها وقد قام على كثير من الوضـوح والبرهان القاطع يؤكد لنا ان الانسان ليس على الشكـل الذي رآه سقراط وفلاسفة القرن الثاني عشر ، كائن عقلي كامل الوعي يستطيع ان يشق طريقه الى ما هو حق وعدل ، والاخذ به ، بل الى حد بعيد الخادم الامين لعدد مـن النزعات اللاواعية غير الارادية التي تظهر في الطفل ثـم يجري كبتها وكبحها . اما الثاني ، فالاستنتاج القائـل بان بين غرائز النفس ونزعاتها ، الغريزة الجنسية ، مهمـا كان الشكل او اللبوس التي تلبسها ، هي ابرز هـذه الغرائز واشدها على الاطلاق ، وهي التي يجب ان نرد اليها معظم الامراض العصبية ، بالنظر لهذا الحرمان الذي تفرضـه التقاليد المرعية في الشرق والغرب . والثالث والاخير هو ان الحرمان في الطفولة ولا سيما ما تعلق منه بالميـول الجنسية ، كثيرا ما نشأ عنه احقاد وموجدة دفينة تتجـه في الدرجة الاولى ، ليس ضد شخص بغيض من خـارج المجتمع او الفئة ، بل ضـد اعضاء الفئة انفسهم الذيـن نحوطهم بالاحترام والتقديس ، كالوالدين او الحكام ، او بصورة موضوعية ، كالحضارة والمدنية في مجموعها ، في بعض الاحيان .

فالاكتشافات التي طلع بها فرويد من هذه الناحيـة تقدم مادة ضافية اذا ما نظرنا اليها بمنظار القديـس اوغسطينس (١٠) على ضوء تعاليمه باصل الشر ونشأته.

---

(٦) ايفان بفلوف (١٨٤٩ - ١٩٣٦) عالم فيزيولوجي روسي تولى منذ عام ١٨٩٠ رئاسة دائرة الفيزيولوجيا في معهد الطب التجريبي كما تولى استاذية الطب الحربي (١٨٩٥ - ١٩١٤) في جامعة بطرسبرج . كذلك تولى ادارة المختبرات الفيزيولوجية التابعة لاكاديميـة الطب فـي الروسيا ومعهد الطب التجريبي فيها . قام بابحاث وتجارب مدهشـة حول فيزيولوجيا القلب وافراز الغدد ولا سيما الغدد الهضمية ، وقـام بتجارب عظيمة للتدليل على استجابة الكلب للفعل العكسي المشروط . نال جائزة نوبل لخدماته المثلى في الطب والفيزيولوجيا .

(٧) - جون برودس وطسون عالم نفساني امريكي مشهور من كبار العاملين في فلسفة السلوكية . علم علم النفس في جامعة جونز هوبكنز (١٩٠٨ - ١٩٢٠) ثم هجر التعليم وانصرف للاعمال الخاصة . مـن مؤلفاته : تربية الحيوان (١٩٠٣) السلوك (١٩١٤) السلوكية (١٩٢٥) ، طرق السلوكية ١٩٢٨

(٨) ادوارد لي ثورندايك ١٨٧٤ - ١٩٤٩ احد مشاهير علمـاء النفس المعاصرين في اميركا . تولى التعليم في دار المعلمين العليا فـي جامعة كولمبيا ، منذ عام ١٩٠٤ ، من مؤلفاتـه : « ذكاء الحيـوان ١٩١١ وفلسفة التعلم (١٩١٤) وقياس الذكاء (١٩٢٦)

(٩) - رتشردتشاين طلمان ١٨٨١ - ١٩٤٨ عالم طبيعي اميركـي تولى مدة التعليم كما رأس كلية الخريجيين في جامعة كاليفورنيا (١٩٣٥) والمعهد التكنولوجي . عرف بابحاثه الدقيقة في الفرويـات ونظريـة النسبة ونظرية الكم والميكانيكا الاحصائية وعلم الميكانيكا الحراري .

(١٠) اوغسطينس القديس ٣٥٤ - ٤٣٠ للميلاد . فيلسوف ولاهوتي

ومع ذلك فهي تلقي نورا على النظرية المعاكسة التي قال بها روسو (١١) وعلم ، عندما يؤكد ان المذنب الحقيقي والمسؤول الاول ، ليس هو الفرد ، بل النظريات الاجتماعية التي قال بها والمؤسسات التي دعا اليها .

في القصص القليلة الاخيرة التي اوجزتها لك امر هام يدل ببنان يبعث الامل في النسل البشري ، اقل الذراري التي عرفتها الطبيعة تهيؤا للحياة ، واقلها استعدادا لها على الاطلاق ، العاطل من كل قدرة وطاقة ، الا من قدرة الاستغاثة وطلب العون والمعونة . انما ، هنالك في موضع مطبق او مغلق من جسمه هذا ، يقوم بحق ، مرتبطا بهذا الجسم الذي ينتفي الانتفاع به ، عقل ومخيلة فيهما من الامكانيات والطاقات المليئة بالاحتمالات المغرية التي يتوقف تحقيقها على الحين الذي يبلغ فيه نضجه الفكري اتمه ،في ميعة العمر او بعد ذلك بقليل ، على شريطة ان يتوفر للولد في السنوات التي لا يصلح فيها لشيء يذكر ما هو بحاجة اليه من حرارة حنو الام وعطفها وحدبها . فاذا كنت تطمح الى عمل حاسم قريب والحصول على نتائج مرضية سريعة، سرح النظر واجل الطرف في ما حواليك من ذراري الحيوان اما اذا كنت ترغب في المزيد من الفعالية وكان بامكانك ان تكبح لجاجتك ، امل بناظريك الى الطفل البشري الذي لا يستفاد بعد منه شيء يذكر ، وتمعن بما فيه من امكانية وقدرة ليس على اقتباس ما لا حد له من صنوف العلم وانواع المعرفة والدهاء فحسب ، بل ايضا على وضع النظريات وتطبيقها اعمالا ونشاطات في غاية الفائدة له والخروج منها بمنافع لم يسبق ان انتفع بمثلها من قبل . هنا وهنا فقط تكمن حقيقة عجز هذا العالم العجول المحموم عن ان يتبينها ويهضمها وينتفع منها ، اذ ليس انفع وافضل من نظرية يمكن الاستفادة منها عمليا .

ان اخذ الولد باوليات النطق والتعبير والتفكير والادراك ، يتوقف الى حد بعيد على وجوده قريبا من أم تمد له يدا رفيقة او من شخص اخر يحل محل الام كمرضع او موح يعرف ان يغذي العقل وينبه فيه الوعي والادراك فيكون بمثابة نصير يأخذ بيد فنان او فيلسوف ناشىء لا يزال فنه ان يدرج بعد في القمط . وعلى هذا فان انطلاق العقل وتحرر المخيلة من عقالها وقيودها كثيرا ما يتوقف على تشجيع المربين وغيرهم ممن بيدهم الامر ، في مجتمع رفيق حليم . ومن هنا كنا على شبه اليقين ان الحب الاموي ، اذا ما جرى دعمه تدريجيا وبصورة لبقة ناعمة بعملية التفتح لاقتبال الافكار والاراء ، كان الباعث الاكبر على التطور الثقافي وعلى استحياء الجماعات وبقائها وبعبارة اخرى ، ومع فرض توفر العوامل ذاتها ان النظام الاجتماعي والنظام العائلي اللذين كانا في غاية الرفق والحلم للمخيلات الحرة الفضة هما النظامان اللذان عمل على ترسيخهما والتمكين لهما كل ما مرت به البشرية في تطورها الصاعد، من وسائل وما عرفته من اجهزة وادوات، وما طلع عليها من اساطير البطولة وطقوس العبادة ومبادىء خلقية ودينية . فالقول ببقاء ما في امة ما من قوة سامية ان لم نقل بقاء ديمومتها واستمرارها وبقاءها ، مرتبط ابدا ودوما بما للعلماء فيها من قدرة على تحرير الخيال وانطلاق الابداع ، وهو أمر يبدو اليوم على أصدقه بشكل يدعو ظاهرا للفكر والنظر .

فالامر ليس من سطحية المظهر بمقدار ما نرى ولان الذيوع والانتشار بالقدر الكافي الذي يدعم القول بان الخيال هو المعين الذي تنطلق منه او تصدر عنه هذه الافكار الخلاقة المبدعة . ليس من الامور المتفق عليها عموما القول ان نظامنا الديمقراطي العزيز ، هذا النظام الذي في سبيل الدفاع عنه والحفاظ عليه جاهد هذا العديد من الناس وجادوا بحياتهم في سبيله ، انبعث من هذه التغييرات التي جالت يوما من الايام في خاطر جون لوك (١٢) وجان جاك روسو .

فاذا ما وضعنا نصب اعيننا امثلة كهذه ، امكننا ان نتنبأ بانه اذا ما كان ثمة من رد فعل خير على هذا التحدي البادي في شحنة الاحقاد التي يتأجج بها هذا العالم المدجج بالسلاح من قمة رأسه الى اخمص قدميه . فالامل معقود بكليته على هذه الافكار والخيالات الحرة التي ستنطلق عفوية من هذه العقول الطليقة التي تتكلم باسم الحكومات الحرة في المؤتمرات الدولية .

تلك هي العقيدة القائمة على العلم وصخرة الرجاء الوطيد التي ادى هذا المطاف الطويل البعيد في ما رويناه من قصة الانسان ، الى الاعتصام والتمسك بها كمرساة خلاص ومنجاة لهذه الانسانية .

يوسف اسعد داغر

من اكبر واشهر واقدر اباء الكنيسة المسيحية في عصورها الاولى ، ولعله من اضخم وابرز العقول التي عرفتها البشرية ومن اخصبها على الاطلاق في كل اين وآن ومكان وزمان . وهو من هؤلاء الفلاسفة الذين سبروا اغوار النفس البشرية فكان من السباقين في ريادة دواخل النفس ومعمياتها . ولد في قرية تاغاست (سوق الاهراس) في نوميديا الشرقية (الجزائر) اليوم . ضل في صباه متبعا مذهب المانوية الذي نادى به مانو وهو مذهب مزيج من المسيحية والزردشية ، ثم ارتد بفضل صلوات امه مونيكا وارشادات امبروسيوس اسقف ميلانو . وهو خطيب وواعظ وكاتب سيم اسقفا لمدينة هيبون . قاوم بدع المانوية والدوناتية والبيلاجية والارية . وضع من الكتب والابحاث والمواعظ والدروس والتفاسير الدينية واللاهوتية ما حمل اسمه عاليا واثره بعيدا في الكنيسة لا يزال بارزا حتى يومنا هذا . له العديد من المؤلفات اشهرها : « مدينة الله » و « اعترافاته » التي حاول روسو ان يقلدها وينحو نحوها في ما بعد

(١١) ـ جان جاك روسو ١٧١٢ ـ ١٧٧٨ فيلسوف وكاتب فرنسي كان من ابرز واخطر رجال الفكر في القرن الثامن عشر . كانت تعاليمه وكتاباته عاملا هاما في نشر المبادىء الجديدة فهيأت مع تعاليم غيره من كتاب العصر كديدرو وفولتير ودالمبرغ الاسباب التي مهدت لاندلاع الثورة الفرنسية الكبرى . وهو من ائمة القائلين بالمدرسة الجديدة القائمة على الاختبار والتجربة والمشاهدة العينية . ولد في جنيف وجاب مدة ايطاليا ومقاطعة صافوى ثم جاء باريس وعمل مدة بصحبة ديدرو مساهما ببعض الشيء في دائرة المعارف التي كان ينشرها . من مؤلفاته « خطبة حول الفنون والعلوم » (١٧٥٠) و « ايلويز الجديدة » (١٧٦١) ولعل اهم مؤلفاته على الاطلاق « العقد الاجتماعي » (١٧٦٢) ، و « اميل » ١٧٦٢ الذي فيه بسط اراءه ونظرياته في التربية اتصل مدة بهيوم في لندن ثم تشاجر معه وعاد الى باريس حيث اصيب بمس في عقله ، وفيها وضع كتابه « اعترافات » .

(١٢) جون لوك ، ١٦٣٢ ـ ١٧٠٤ ، فيلسوف انكليزي من كبار فلاسفة اوروبا وانكلترا في القرن السابع عشر . جاء بنظريات جديدة تتصل بالحكم والتربية الحديثة الذي يعد من اركانها في العصر الحديث وقد لقب بعدل بابي الفلسفة التجريبية في انكلترا .

العودة
الى الظما

ترى نفترق ؟
وهل نحترق ،
وأمس
حلمت بثوب لعرس
وطفله
تنقل ما بيننا مثل نحله
ورحت تلمين كل الزهور
وشيئا من الدفء .. عطرا ونور
لـكي تنسجي ـ ألف ثوب صغير ،
لطفله
تنقل ما بيننا مثل نحله
فهل مات أمس ،
وما عاد الا ظلالا لرمس
ولما يزل ،
رفيف على خاطري ينهمل
وعطر ودفء وثوب لعرس
فهل مات أمس ؟
لـكي نفترق ،
وقد نحترق
ونحن على الدرب لما نزل
صغارا .. صغارا ،
صغارا كنجم الصباح
يطلُّ وآونة يختفي ،
كأن على ظله الراجف
ترسب كل ارتعاش الصغار
من الليل والمجزره ،
من الريح تصفرُ في مقبره
صغارا .. اذا ما الفؤاد احترق ،
لهونا بنيرانه
وعدنا الى حانه
نلملمُ بعض شظايا الكؤوس
ونوقد في كوّة الحانِ بعض الشموس
ونطفيء اخرى
ونكشف سرا
ولـكن سدى نفتحُ ،
لشمس الربيع سدى نفتح
مصاريع ابوابنا
لـكي لا يعود الشتاء
ويسأل عن حبنا
لـكي لا يعود ،
يحدق من خلف بعض النوافذ في صمتنا
سنوصدها بوجوه الرياح ،
سنوصد كل النوافذ كي لا تجيء الرياح
وتفتح أخرى
وتنسج حول الذي مات امرا
ولـكن سدى كل ما نفعل
فهذي رياح الشتاء ،
رياح الثلوج بدت توغل
باعماقنا
تجمد اوصال احلامنا
... ونحصي سدى كل ما نعرف ،
جميع الوجوه التي نعرف
فذاك صديق قديم
وتبعث ذكرى وداد مقيم
فنخجل من صمتنا
ونكتب بعض الرسائل عن حبنا
ونرجع .. نرتاد ما نعرف ،
شوارع ، مقهى ، طريقا قديم
نحيي الوجوه التي نعرف ،
جميع الوجوه التي نعرف

بغداد — عبد المجيد الراضي

قصة مصرية

ماساة صغيرة

بقلم حسام عزت

*

كان صنبور الحيات في الحمام ما زال ينز قطرات متتابعة من الحيات من عند الماسورة الصدئة المثبتة على جدار الحمام بحزام من الصفيح المتآكل ، وجدتي تحاول — سدى — ان تغمد الثقب المجهول بخرقة او تنزعها من منديل راسها الذي يضم كل شعرها الاشيب الذي يتساقط دوما بحرية ولامبالاة حيثما تكون ، وغمغمت وهي تمصمص شفتيها علامة التحسر والقرف .

— اعـوذ بالله مـن الماسورة ، الماسورة فسدت ، العامل اصلحها يوم الاثنين !

ولما كانت جدتي تيأس سريعا بل ان كل حياتها كانت سلسلة متصلة من التصرفات الاندفاعية اليائسة تزاولها دونما اية تعقل ، او مجرد تقدير للتبريرات والنتائج ، فقد دفعت الصنبور براحتها وكانها تلطمه ، ومضت تجفف الماء على ذراعيها بفوطة الوجه المعلقة على المشجب وتتأهب لصلاة الفجر وكنت ارقبها بنصف عين وهي تتجه نحوي لتربت على ظهري وتطقطق اصابع رجلي .

— قم من اجلي، قم يا حبيبي ، قم من اجل المدرسة .

وهنا يحق لي ان اغضب ، فاقوم نصف قومة لاقول لها زاجرا .

— يا جدتي انا لم اعد في المدرسة لقد صرت في الجامعة ، في الجامعة يا جدتي .

— مدرسة ، جامعة ، كله تعليم ، كله نعمة من عند ربنا .

وعندما كنت اتناول الافطار من يديها كنت احس بتدفق السعادة في شراييني .. وافكر في المخلوقة الحنون التي انشات ابي حتى صار كما هو الان والتي تعتني بي ايضا دون اية جبرية ما — وفي الشهور الستة التي قضيتها اشاركها طعامها وحجرتها ، وفراشها في اخر النهار ، وكنت ارجو ان تمتد سنين اخرى حتى اتخرج .. مدرسا .. واقبض راتبا شهريا ، كالموظفين يكفيني وجدتي ودائما كنت افكر في الايام الجميلة المقبلة ، وعندما تفيض بي السعادة نقتسمها انا وجدتي ..

كانت الايام العشرة التي قضيتها عند عمتي ، سجلا حافلا بالشقاء ، كان يخيل الي انها تود لو تضربني لولا انها تخشى شيئا ما ، تود لو تطردني لولا انها تستحي ، وعيناها الضيقتان الخبيثتان كانتا دوما تحرقاني باللهيب ، يتبعني حيث سرت ، كانت تقدم لي الغداء القليل وتود لو تأخذ روحي عوضا عنه ، والشاي .. كانت تقدمه لي في فنجان صغير كغطاء المحبرة رائقا .. كماء البصل ولم تعلق به ذرة واحدة من السكر ، وهي تنظر الي نظرة جادة غضوب ، فهمتها انا ،

— لماذا لا تعود الى بيتكم ؟

ولكن كيف ..؟ كان ذلك مستحيلا جد مستحيل ، وفي الحق ، انـي اثقلت عليها بضيافتي الطويلة .. وكنت اعرف انها لم تكن ملزمة بالتكفل بمعيشتي ، وحتى هي لم يكن لديها شيء ككل النساء في عائلتنا ، وزوجها كان هو الذي ينفق على البيت (بيتهما) لم يكن يحبني هو الاخر .

ويبدو لي انه لم يكن يود ان يكرهني ، كان يعاملني بجفاف وخشونة لا مبرر لهما ويظهر شيئا من الاهتمام المصطنع بي .

— هل اكلت ..؟

— اجل ..

— حسنا

ونادرا ما يزيف احساسه الذي كان دائما جامدا ومتبلدا متكلفا الرثاء من اجل حكايتي مع والدي

— لا تحزن ، لا تحزن ، ربنا معك ، اجتهد ، اجتهد المثل يقول لكل مجتهد نصيب .. وعندما كان يتقدم ليواسيني كان يخيل الي انه سوف يسحقني بجثته الهائلة .. انه سوف يطمسني تماما كبقعة ندية أزيلت ويلفني الشعور بالضآلة والدونية . وبعظم الهوة بين بدني المتداعي الضامر ، وبين جثته الهائلة حينذاك كان يخيل الي اني انتسب لفصيلة حشرية لم تعرف بعد عديمة النفع والضرر ، تقريبا بلا جرم ، ثم لا طنين لها على الاطلاق ، وكان يدق براحته الضخمة عظامي الفقيرة كمن يشد ازري .

— لكل مجتهد نصيب

وكان هو الذي ابلغني الخبر .. وانا ما زلت على الدرج ، بطبيعة وبساطة ، ودون ان يتحمل مشقة النظر الى وجهي .

— اسمع . جدتك فقدت النطق !

وكمن لا يعنيه الامر .. كمن يتحدث عن ذبول الطحالب في سيبيريا ، اردف .

— سنذهب اليها الان .. جدتك بلغت النهاية ، الطبيب قال لنا ذلك .

— ماذا قال .. ؟

— لا فائدة . من الخير ان تريحوها من العلاج ، باستطاعتكم الحصول على تصريح لها بالخروج من ادارة المستشفى ، ستكون اكثر ارتياحا بينكم .

وكمل العملاق ، وكانما يخشى علي قلة الفهم .

— خير لها ان تموت بين عيالها ، ذلك افضل ، دع هذه الحقيبة جانبا، ثم ناد عمتك

ترى ماذا تصنع هذه المراة ، قل لها ان العجوز تموت .

كان عندي سلفا الاعتقاد الجازم بان المستشفيات الحكومية المجانية ، جبانات مؤقتة ، لانصاف الموتى ، وكنت قد اعددت نفسي لهذا ، غير ان كل ما اعددته تبخر فجأة ولاول وهلة — لدى رؤية كل هذه الاشياء ذات التلوين الدامي ، فعلى المدخل، كان جمهور ثرثار ، متدافع كثير اللغط عن المرض والموت .. والدواء والبراز .. وكل الاشياء التي تجلب التقزز والنفور .. كان الجمهور خليطا عجيبا من النساء الريفيات المهزولات .. والرجال الذين يمتلكون اجساما سقيمة .. والعيال المروضين

الذين يضيعون في الزحام .. بين الاقدام ، وفي الداخل كنا نصطدم بوجوه التومرجيات الشرسة تحمل اعينهن النهمة التي تطلب دائما ، النقود .. النقود .. وينشرون روائح مخدر الكلوروفورم وصبغة اليود بينما تتصاعد من الارض رائحة الفينك .. ثقيلة وذات نكهة حادة من البركة القذرة التي تنتشر في ساحة ارضية المستشفى وتغرق فيها قطع متكورة من القطن استعملت فيما مضى كضمادات .. وعلى الجدران ، كانت تتناثر بقع الدم السوداء ، لزجة ومتجلطة تشير بان الدماء ليست لها القدسية الاسطورية ، فليست اكثر من صبغة حمراء رخيصة ! من داخل الحجرات كانت تنبعث صرخات ممزقة يائسة ، كانت ستبدو واضحة وقوية اذا اكتسبت الصحة .

ـ آه .. آه .. اموت يا رب .. اموت يا رب ، يا رب ..

صدتني عن ولوج الغرفة وكبلت اقدامي بثقل .. اصوات صبية ونساء ، ورجال غير اني لم اميز بينها صرخات جدتي ، بينما اندفعت عمتي وزوجها ، والاخرون الى الداخل كمن يلج وليمة دسمة. كنت ارى كل هذه المشاهد تدور امامي ، تنتظم وتتفكك بشيء من التمييز والوضوح، غير اني لم اكن اعيها تماما ، فذهني كان مشغولا باشياء اخرى ، اكثر التصاقا بذاتي ، كفرد ، بحاضري ، وغدي .. اشياء تخصني وحدي .. وليس باستطاعة كائن سواي ان يديم التفكير فيها طويلا .. حتى يتمزق دماغه المرهق

★ ★ ★

كنت افكر في ابي واخوتي ، ليلى ومدحت وتلك المراة التي يقولون عنها ـ امي ـ بينما تتردد في اذني الكلمات التي تحبسها عمتي عند مدخل حلقها.

ـ لماذا لا تعود الى بيتكم ..

تتردد بشكل منتظم الايقاع لتصفع احساسي المتيقظ دائما .. وكنت اود ان اقول لها .. كيف اعود يا عمتي ؟ انت تعرفين .. تعرفين .. ان ذلك مستحيل ، جد مستحيل، فكيف اعود يا عمتي ، لن استطيع فهم سيطردونني ثانية ، وسيقولون لي نفس الكلام الذي قالته ـ امي ـ عندما طردتني منذ شهور .

ـ انت شرس .. ومشاكس ،سيء التربية ، ولا تستحق ان يحوطك مخلوق بالرعاية لقد ربيناك حتى صرت كبيرا ، وتستطيع ان تعتمد على نفسك ، تستطيع ان تعمل اي شيء نجار ، او حذاء مثلا ، وتكسب عيشك بنفسك .

وستقذف لي جعبة الملابس الملفوفة بملاءة بالية ومهترئة من الشباك وتشيعني باللعنات ، انت تعلمين انها فعلت ذلك ـ يا عمتي ـ وانا لم اكن اقصد ان اقيم معك ، ان اثقل عليك باقامتي ، فانا ذهبت مع ابي حينذاك لبيت جدتي وقال لها مشيرا الي.

ـ لقد اتيت لك به ، انه سيسليك كثيرا في وحدتك .. فهو لا يستطيع ان يعيش بوئام مع ـ امه ـ كلاهما عنيد ذو راس صلب ومزاج حاد .. انا لا اعرف لماذا يتشاجران ، اليست كامه ..!

ثم مدت جدتي يديها النحيلتين لتاخذ جعبة ملابسي .. لتضعها على الخوان،ثم مدتهما ثانية ليحضنني صدرها الحاني وتغمر وجهي الساخن المرتجف بالقبلات . كنت سعيدا اذ ذاك اذ لم اكن اتصور ان هناك اناسا طيبين ومخلصين مثل جدتي .

كنت سعيدا ان يحبني شخص ما.. يحبني الى هذا الحد ، لم اكن اتصور ذلك فقد كانت ـ امي ـ تقول لي دوما .. كل الناس يكرهونك .. يكرهونك .

وكنت بدوري اكره اولئك الذين لم يحبوني ، اكره كل الناس ، وكنت سعيدا ان اقاسم جدتي حياتها الدافئة البسيطة ، وفي الصباح كنت اذهب الى الكلية ، وكثيرا ما كنت اجلب لها معطفها الاسود من على المشجب لنخرج سويا . نتفرج على الشوارع والحدائق والناس وعندما حاول الحمقى ان يعودوا بي الى البيت .. بعد ان هدات سورة غضب ـ امي ـ بصقت في وجهي ، وقذفت بجعبة الملابس ثانية في وجهي وراحت تنادي العساكر ليأخذوني بعيدا عن المنزل منزل ابي ، وكنت اتالم لكل الاهانات التي تلحقها بي ، واحس لها وقع السياط فتتلاطم في مخيلتي ذكريات كل ايام التعاسة ، وينط امامي كثعبان رهيب السؤال الذي يصنع ماساتي لماذا تزوج ابي هذه المراة ، الم يكن يستطيع ان يبقى اعزبا ككل الرجال الذين تموت زوجاتهم .. امهات ابنائهم .. وتذكرت ان وفاءه لامي الراحلة لم يدم اكثر من اربعة اشهر .. وعدت الى البيت ذات ليلة .. لاجد هذه المخلوقة البغيضة ـ تتعشى معه ـ وقال لي ساعتها وقد احس بالحرج يكسو موقفه ، عندما وقفت احدق فيها بوجهي الابله

ـ انها امك الجديدة ..

وودت ان اقول له لم اعد بحاجة الى ام.. فانا لم اعد بعد طفلا ، غير اني لم اقل شيئا ومددت يدي لاضعها في كفها بالتحية .

ـ مساء الخير

ودفنت وجهها في المائدة تلوك قطعة من لحم حشرتها في فمها دون ان ترد تحيتي المعلقة . وتتابعت ايامي السوداء معها ، وفي البداية كنت اعاملها بهدوء ، وتحفظ واتقبل فظاظتها بعدم اهتمام ، وفي الليل كنت اسمعها تغلق باب حجرة النوم على ابي ، ويتصل بينهما الهمس الذي يوش في اذني ويتساقط كحبات الرمال الساخنة ، وانجبت طفلها الاول ، ذلك الغلام السمين كالوسادة، ومن يومها بدات تفرض سلطانها المباشر علي .

ـ لا تخرج ، لا تتاخر عن المساء ، لا اريد ان ياتي اصدقاءك الى بيتي ، واذا جاءوا ساطردهم ، سامع .

واحسست ـ منذ اللحظة ـ اني مارد حبيس داخل زجاجة صغيرة في حجم الاصبع ، ورحت اناقش وارفض وبالتدريج امتدت يدها لتضربني ، وتماسكنا اكثر من مرة ، ثم طردتني من المنزل لياخذني ابي الى بيت جدتي، وكنت سعيدا ان ابقى مع جدتي في جوارها غير انها مرضت تركتني ومرضت ، ولم تجد من يعنى بها ، فعمي كان لاهيا عنها بزوجته رغم دمامتها ، ولم يكن يهمه ان تعيش امه او تموت ، وحملوها الى «القصر العيني» ، فكلهم يريدون ان يقتسموا حاجياتها البسيطة ، كلهم ينتظرون وشيكا ان تموت ، وخلال الايام العشرة التي عانت امتدادهن جدتي في الجبانة الحكومية المجانية مكثت عندك ـ يا عمتي ـ منذ اتى ابي ، اليك وزوجك ، كنتما تعاملانني بجفاف وفظاظة .. هذه المعاملة الشاذة ، حتى ابنتك العجفاء الصفراء كانت تخجل من رؤيتي ومجالستي

وتهرب الى فتيان مخلصين ، اتفاضى يا عمتي واسكت ، وانا اعرف راسها الاجوف بالسخافات التي حفظوها من كتب الهوى ، وكنت اتفاضى يا عمتي واسكت ، وانا اعرف ـ يا عمتي ـ انه لا يهمك ان تموت جدتي ، او تعيش بل يهمك ، ان تموت لتغتصبي اوانيها النحاسية وجلابيبها ، ولتأخذ ابنتك الصفراء، الاساور التي حول معصمها ، وانا اعرف كل ذلك يا عمتي ، والمح في عينيك الهم ، لكني اتغابى ، واسكت واراك الان ، وانا بردهة المستشفى .

وانت تتبعين زوجك العملاق ، يحمل بدن جدتي كطفل احمق ،يلهو بدميته و (توحوحين) يا لئيمة ، كمن اخذته الذبحة من كثرة النواح .

من خصائص النافذة المغلقة كان ينفذ سيال دقيق من الاشعة الباهتة تصطدم بالجدار المواجه فتتكسر ظلاله موجات متذبذبة تسبح على الحائط المعتم . كأشباح هلايين مذعورة ، وعلى السرير كانت جدتي تتمزق ، تموت ، ومن حولها وقف ابي ، وعمي وعمتي والاخرون يتطلعون باوجه واجمة ، كانهم ينتظرون حدوث شيء ما ، لا بد ان يحدث ، وكنت لم ازل عند بداية مدخل الغرفة حين سمعت غثاءها ، اه ، اخ ، اخ .

وشممت رائحة الموت ، كان بدنها النحيل القصير الذي يا طالما ملا العالم حيوية وبهجة ينتفض بشدة كمن تحرقه النار ، بينما كانت يداها تعتصران بطنها ، وكانما تموج بالسعير وعندما راتني كفت عن الشفاء ، وتعلقت عيناها بي ، وخيل الي انها تلاشت ، وذابت في الفراغ ، انها هاتان العينان فحسب ، كنت اعلم انها لا بد ان تقول لي شيئا ، فاقتربت من السرير ، وعند ذاك رفعت نصفها الاعلى ، الى مستواي ، ثم تعلقت يداها بياقة القميص حول رقبتي ، وتطلعت الى وجهها الخالي من التجاعيد ، والذي يحكى حبة الكهرمان الاصيلة ، ورأيتها تلفظ المقاطع .. ح .. حـ .. حو .. دون ان تستطيع اكمال الحديث . وعرفت انها تكلمني ، وراح صدرها يعلو وينخفض ، ورئتاها تمتلان بالحياة ، ثم تلفظانها ، وراحت تردد حو .. حو .. حسام .. وعند ذلك قالت لي اشياء كثيرة ، رايتها مرسومة في عينيها الصافيتين ، وتراخت يداها حول رقبتي ، ثم تهاوت ، وارتد بصرها الى « امي » التي راحت تمضغ شتائمها في ركن قصي .. وتعلقت انظارها بيني وبين « امي » كأنها تختار احدنا ، واوجعتها كثيرا حتى نكست راسها المغرور ثم تجمدت نظرتها نحوي ، وهمدت حركتها ، وتصلب بدنها وسقط راسها الصغير من فوق الوسادة واندفعت عمتي نحوي .

ـ ماتت .. ماتت .. امي ماتت .

واقتحم اللحاد بيتنا بالوادع ، بدينا ، ومتورد الخدين ، كمن يلتهم موتاه ، يردد بصوت اجوف خال من الدفء .

ـ كريم ، غفار ، الموت علينا حق ، وحدوه

وصبيانه يحملون النعش الذي لن يجد من يسير خلفه ، وفي غمار الاستعداد للجناز ، كانت عمتي تفتش عن الاواني النحاسية وموقد الغاز ، والملابس المخبوءة ، بينما انتزعت ابنتها الصفراء اساور جدتي لتزين معصميها الاثيمين،وهرب عمي بالكرسيين والمنضدة ينشد اقرب بائع اثاث قديم .

وانسللت عبر البوابة الحديدية الى الخارج ، وقد ضاق بي ذلك العالم الغريب ، المحكم الانغلاق ، افكر في انسان ضائع ، تتناهى خلفه ايامه التعسة ، المجللة بالسواد ، يمضي معها في طريق غائم يسبح في ضباب من الذهول ، يفضي الى مستقبل ليست لديه الرغبة مطلقا في ان يعيشه ، وكانت اقدامي التي حفيت كثيرا في البحث عن عمل يوائم سني الستة عشرة طوال الشهور الماضية تسوخ في ارض الطريق الموحلة وتثير رذاذا يصفع اوجه الرائحين ، بينما كانت عيناي معلقتين بخيوط المساء تمتد من بعيد لتنتظم وتتجمع سحابة كبيرة داكنة ، ثقيلة ، ودسمة ، تكبر ، وتنتشر لتطوي المدينة وتخنق الكون .

حسام عزت — **القاهرة**

نجوى

✳

لعلي الزيبق

حلب

✳

أين الهوى ؟
يا ليل .. يا حان الهوى
يا ومأة الاحلام ملء دناني
ذوبت في أغواره اجفاني
ونثرت فوق جبينه الحاني
أين الهوى ؟ يا ليل ..
يرسي قاربي في شطه المتفجر الالوان
واحسرتي !
اني تعبت ...
وكل ما حصدته راحي سنبل الدخان

بين الفكاهة والتهكم

بقلم رونالد نوكس

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

لم تعط الفكاهة حقها من البحث والدراسة ، والتحليل، وهذا يعني ان هذه الكلمة لا تزال ظاهرة حديثة نسبيا ، ومن ذلك انها لم تكن موضوعا مهما قمينا بالمعالجة من قبل عبقرية جون ستيوارت مل الصبور . وفي الوقت نفسه هي –الى حد الان –من الموضوعات العسيرة التناول، والا فما بالنا لا نجد دليلا جديدا يرشدنا اليها ، وبخاصة وبد ارنولد بنيت على قوتها ، وفتوتها ؟ من المؤكد ان هذا الاغضاء والتغافل لا يعودان الى افتقار الفكاهة لاهميتها الجوهرية ، وكيف يكون الامر كذلك وهي نافذة الروح الطليقة ، ومن خلال هذه النافذة لا نرى عالما مختلفا عن عالمنا المعروف ، وانما نرى تجاربنا مشوهة ، كأن احد الاشباح الساحرة قد جعلها كذلك . ان في هذه النافذة الزجاجية قابلية غريبة تحول اصدقاءنا الفانين الكادحين الجديين الى شخوص مازحين هازلين . واذا ما احس بها الانسان فجاة فستكون نورا يحل ببصيرته ، نورا هو من القوة والواقعية بحيث لا يقل في صفائه وبريقه عن ذلك النور الذي يهبط على حين غرة على انسان لم يبصر في الحياة غير وجوهها الداكنة ، المظلمة .

واكثر من هذا فان الفكاهة صديق حميم للانسان يلازمه في غدوه ورواحه ، ولا يترك مجالا للوحدة في أي مكان كان . تراه معه في عربات القطر المكتظة ، وفي اطراف الليل وآناء النهار ، في ساعات سهره ، وفيما هو فيه من شغل شاغل وعمل دائب وفيما يتقلب فيه من شجون وشؤون ، هو ملازمه في الكنيسة ، وفي غرفة الطبيب ، وفي اي محل ينزل به . ولو كان لي من الوقت ما اوفره لحاسة الهزل ، لجعلت اتغنى بها ، ومع هذا ، فهذه الحاسة تصلح من امور الناس وتربكها ، وفيها تكمن الصداقة الصادقة ، والخطر الداهم . ولو كان لي ما يحق قوله في الموسوعة لما تقاعست عن ذكر ما اريده ، ولكنت قد جعلت الطيور المفردة – طيورا حمقاء ضاحكة .

ولقد عولجت الفكاهة مرتين في الادب ، وكانت المرة الاولى في مقدمة مريديت لكتابه (الاناني) وكانت الثانية في كتاب تشسترتون The Napoleon of Natting Hill اما معنى الفكاهة فلا يزال سرا من الاسرار . ومن السهولة بمكان تمييزها عن صواحبها وجيرانها في ميزان القيم . ولنضرب لذلك مثلا صلتها بالفطنة ، انها بعيدة عنها كل البعد . لان الفطنة مسالة تعبيراولا وآخرا. واللاتينية، منبين اللغات ، هي احسنوسيلة لعرض الفطنة، واعجزها عن تناولالفكاهة

انك لا تتمكن من تصور فكرة ذات فطنة من غير ان تتصورها في كلمات . ولكن الفكاهة قد تكون عارية عن الكلمات ، فكم من افكار عميقة يتعذر على الضحك نفسه ان يصل اليها . وفي هذه المقالة ساحاول مقارنة الفكاهة بنقيضها ، التهكم . ولكن قبل كل شيء ، دعنا نحدد المعنى الذي نبتغيه ، على طريقة ارسطو . ان نطاق الفكاهة هو الانسان وفعالياته ، على ضوء الاحوال المتناقضة المحيطة به، وهذا التناقض شديد غير متوقع الى حد يجعله يبتز من الانسان كرامته . ومن هنا ، فان المصدر الرئيسي للفكاهة هو الانسان المخبول ، او المدمن على المسكرات او المخدرات، فهذان يشبهان الانسان الاعتيادي في المظهر ، من غير ان يكون لهما طاقة عاقلة ، تحدد مكانة الانسان في معناها العام . وكذلك الغريب فهو في بعض الاحيان ، يستدر الضحك لانه قد يلبس لباسا مغايرا للعرف ، او قد يصدر اصواتا ناشزة . وكذلك الانسان الذي يسقط على قارعة الطريق في يوم من الايام المثلجة ، انه يدعو الى الضحك لانه نبذ المشية الطبيعية الصحيحة ، التي هي مجد الانسان السوي .

هذه الاشياء جميعا مضحكة ، لا لشيء الا لان فيها شيئا من المتعة المنبثقة عن هذه الاوضاع ، وفي كل حالة من هذه الاحوال لا بد من ضحية بشرية . ومن المحتمل في الاسلوب الاسطوري ، تبديل هذه الضحية بحيوان ، ولكن على شرط ان يكون لمثل هذا الحيوان صفات انسانية. فسقوط حصان ، مثلا ، لا يستدعي شيئا من الهزل والمرح. اما العاب القردة والقطط فهي تؤنسنا من اجل سبب واحد الا وهو اننا نضفي صفة التعقل على هذه الحيوانات ، وهذا ما تعودناه منذ طفولتنا . فالانسان وحده له كرامة ، ولذا فهو وحده اهل للفكاهة . ولا ادري ان كانت الفكاهة يصح ان تبقى مواكبة لمصائر البشر ، بغض النظر عنسقوط آدم ، فهذه معضلة كان يمكن معالجتها من قبل القديس الاكويني في لاهوته ولكن ضيق المجال ابعدها عن هذا النطاق .

وهنا تبرز مشكلة جديدة (على حد قول المؤلف السابق ذكره) وهي : هل تعد الفكاهة – في اصلها – امرا مناقضا للحشمة ؟ والنظرة الاولى – في هذا الصدد – تشير الى كلمة : نعم . ومن ذلك ان الفيلسوف يقول بان

ما يضحك يدل على ما هو معيب ، لانه فرع منه . ولنضرب لذلك مثلا الالهة ، في كتابات هومر ، فهى تضحك على مآزق اريس وافروديت . وهذا ما يبينه الشاعر المغني ديمو دوكس . ولكننا ان انعمنا التفكير في هذا الامر ، وقلبناوجوه النظر ثانية لتوضح لنا دس قصيدة ديمودوكس في ثنايا ملاحم هومر ، وهذا ما هو متفق عليه من قبل جمهرة النقاد .

واول ذكر للضحك في الكلاسيكيات (القديمة) جاء خبره بمناسبة ضحك الالهة من رؤية هيفيستوس (١) الاعرج ، وهو يلهث كلما سار جيئة وذهوبا في القاعة . ومن ثم فالاعرج يضحكنا لانه يتمتع بقوى الحركة كسائرنا، ولكنه يستخدم هذه القوى بطريقة مخطئة . فمشي مثل هذا الانسان معدوم الانسجام ، ولذا التذت الالهة بمراقبته طوال هذه القرون ... ومما لا شك فيه ان المحللين النفسانيين لا يزالون يريدون منا الاعتقاد بان جميع الفكاهة تنبع من الخسة ، ولذا نحن كلما ضحكنا فكرنا بشيء خسيس ، ولو بصورة لاشعورية . ولكن الشيء الدنس ــ في الواقع ــ لا يدل الا على محاولة غير شرعية من محاولات الفكاهة . فليس في وجود الوظائف الجنسية غرابة ، ولكن الغرابة تكمن في ذكرها . وهنا ليست الكرامة هي التي تخدش في مثل هذه الاحوال ، بل ما ينتهك هو سرية التقاليد البشرية ...

ومع هذا ، فثمة حق في توكيد الفيلسوف على ان الامور المضحكة مرجعها الدناسة ، وفي هذا المعنى ، يمكن عد كل نكتة بمثابة استخفاف باحد الناس ، وهذا ما اقصده بالضحية الانسانية . وهذه الحقيقة قد غلفها الابهام ، بسبب تكرار النكات وازديادها وبخاصة في عصرنا الحديث الذي فيه اخذت النكات تنصب على واضعيها . فالشخص الذي يجعل من نفسه اضحوكة ليبعث السرور في قلب طفل من الاطفال ، انما يجعل من نفسه شخصا احمق . ولذا فكل الادب الفكاهي بما فيه ، (افكار مفرحة) و (مذكرات نوبدي) وكتب (اليزا) وهي تلك الكتب المعروفة جيدا ، اقول : ان كل هذا الادب يعتمد باسره على حقيقة واحدة ، الا وهي جعل المؤلف نفسه اضحوكة حمقاء .

وفي الفكاهة باسرها تضيع الكرامة في مكان ما ، كما تنسل الفضيلة من بعض الناس . ذلك بان الفكاهة الباطنية لا وجود لها في الاشياء . واذا ما حدثت نكتة من النكات فذلك دليل على وجود الانسان في مظانها ، هذا الانسان الذي هو نصف ملاك ، ونصف وحش . وانا لا اصر على هذه القضية ، لان التحليل غير الدقيق ، قد يحمل احدنا على الظن بان جوهر التهكم ، قد يكون نكتة موجهة الى الاخرين . ولذا فهذا التعريف غير واف بالقصد . اذا اخذنا بنظر الاعتبار تحليلنا الحالي للفكاهة . قلت من وقت قريب ان الفكاهة ظاهرة حديثة. واذا ما ذهبنا هذا المذهب، فان ثبات نظريتنا هذه تقتضي الكثير من الجدل والتقصي. ولكن دعنا نتحدث متواضعين فنكتفي بالقول ــ في الوقت الحاضر ــ بان الهزل في الادب ظاهرة جديدة ...

وفي هذا الصدد جاء في (الموسوعة البريطانية) : (ان الفطنة تعبر عما هو منظم ، منسجم ، مرتب ، اصطناعي ، اما الفكاهة فهي اكثر من الفطنة وحشية وانطلاقا ، واسرافا وخيالا ، وهي تلازم الانسان على شكل نوبات لا يقدر على السيطرة عليها ولا التحديد من قوتها ، وهي لا تتفق تمام الاتفاق مع الادب الحق . قد يقال ، ان الفكاهة تبعث على المتعة اكثر من اختها ، الفطنة ، ومع هذا ، فالانسان الفطن اعلى قدرا من الانسان الفكاهي ، شأن الرجل الماجد الفاضل بالقياس الى المهرج ، وايا ما كان الامر ، فان الاخير قد يكون اكثر ايناسا من صاحبه .

ومع ذلك فان دوق بكنهام يجعل الفكاهة كل شيء . « على الرغم من عدم انسجامها بالخلق المؤدب » ــ وهذا دليل قاطع على ايمان القرن الثامن عشر ، حتى في انحطاطه وتدهوره « بغض النظر عن شذوذ دوق بكنهام (٢) » ــ وقد يبدو ان عهد (الملك المسرور) (٣) كان يرى الفجر الكاذب في حاسة الهزل . واذا كان الامر كذلك ، فان قرنا من الزمن حطم هذه الآمال وبعثرها بقوة. جاءت الثورة الفرنسية ومضت ، ومع ذلك ، فالفكاهة كانت بالنسبة الى عصر (برك) « غير ملائمة للخلق المؤدب » .

ومما قد يغرى به احدنا هو التوكيد على ان القرن الثامن عشر قد كان يشكل عهدا خاصا في التاريخ الانساني، اذ انه ما ان درج الى غير رجعة ، حتى اتخذت الفكاهة موقفا خاصا في الحياة ، وذلك في بداية القرن التاسع عشر، ولذا ، تبدو لي نغمة دزرائيلي في السياسة ، ولهجة رتشارد هرل فراود في الدين ، غير لائقتين بالقرن الذي سبق مجيئهما الى الحياة . ثم دعنا نحصر همنا في الادب، ونقتصر على الفكاهة كقوة فيه ، ومن هنا يصح القول بان الفكاهة تضاءلت في سبيل الحياة عند جين اوستن ، ولم تكد لتبلغ سن الرشد الا في (كالفيرلي) .

انا اعرف امورا شاذة في هذا الشأن . فهناك فكاهة ارستوفان وبيترونيوس وشكسبير ، ولو ان عند الاخير الشيء القليل منها ، اضف الى هؤلاء ستيرن وشيريدان . ولكنك ان اردت ذكر الاسماء العظيمة في العهود الغابرة ، فانت ستجد جميع هؤلاء من الكتاب التهكميين ، ومن هؤلاء ارستوفان ، في معظم نتاجه ، ولوسيان ، وجوفينال ، ومارشال ، وتوماس مور السعيد، وسرفانتس ، ورابليه ، وبتلر ، وموليير ، ولافونتين ؛ وسوفت ــ ولكن الفكاهة والتهكم كانا ــ ما قبل القرن التاسع عشر ــ تعبيرين متداخلين . اما الفكاهة ــ في الفن ــ فقدبدات في القرن الثامن عشر على يد هوغارت ! ومصداق ذلك كله يمكن التثبت منه ، بان نضع احد كتب باري اوملن بين يدي ادمون برك ليفهمه .

وهذا التطور في الفكاهة يصح تحديده ، في عصرنا الحديث ، بانهيار السذاجة . واذا انت ما شغلت نفسك بمضحكات الكتب الكلاسيكية ، فلا بد لك ان تعرف انها لم تكن مقصودة من قبل المؤلفين . ومن كل الكتاب القدامى ليس من احد يسعه مضاهاة هيرودوتس في ايناسه ولطافته ، ولكن احساسه بالفكاهة ، أقل من غيره . فالموهبة التي يتمتع بها الساذج موهبة ربانية . ومع ذلك ، فهي تصل ذروتها في مطلع القرن التاسع عشر ، ومن هنا يصح ان نضع جيمس بوزويل في المرتبة التي تلي مرتبة هيرودوتس

---

(١) هو اله النار عند الاغريق ، المترجم

(٢) هو الدوق الذي سخر من صامويل بتلر في كتابه (هوديبراس)

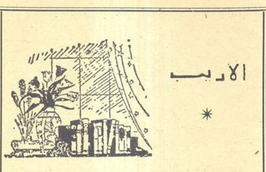
(٣) هو الملك تشارلس الثاني .

ومنذ ذلك العهد لن نجد سوى فكاهة لاشعورية عند بعض الكتاب الادباء من اضراب ايلا ويلر ولوكس وغيره . ذلك بان الفكاهة تقتل السذاجة : ومن اجل ذلك ، فليس من كاتب عظيم ، في وقتنا الحالي ، في قدرته اقتناص شعور بوزويل الباهي ، ذلك الشعور الغيري البديع .

وبعد هذا التصحيح ، اعتقد بان الادب كان جديا قبل القرن التاسع عشر اذ لم تكن الفكاهة فيه منفصلة عن التهكم . ثم اني انتقل الان الى فكرة قلما تجاسر على ابدائها ، واعني بذلك : ان الفكاهة كوحدة منفصلة هي من ميزات الشعوب الناطقة بالانكليزية ، حتى ان هوستن تشمبرلن لم يجرا على تهنئة الالمان بحاستهم الفكاهية .. وهنا تتكلم الحقائق بنفسها . ان التهكم لا يزال مزدهرا في (القارة) ، وخير مثل على ذلك آناتول فرانس الذي كان مواطنا جديرا ببلد فولتير . كما ان التهكم هذا موجود بين الشعوب الشمالية ، واذا كان لي ان اعبر عن رأيي الخاص في اعظم المتهكمين في العالم ، فانني لن اتوانى من القول : انه هانز اندرسن . فالرجل الذي كتب (الابرة الرافئة) و (البطة القبيحة) و (ثياب الامبراطور الجديدة) كانت عنده حاسة توصل بها لادراك سر الضحك لدى الانسانية جمعاء ، وبذا فهو يمتاز بهذه الخاصة على سوفت نفسه .

فالسخرية اذن اممية في مجاليها ، وهي موجودة في العصور كلها . ولكن اين نجد الفكاهة المنفصلة عن السخرية في القارة الاوروبية ؟ ومن منا يمكنه العثور على نكات في الصحافة الاوروبية ؟ قد يقال لي ان فرنسا شاذة في هذا ، واذا كان الامر كذلك فالقاعدة لا ينقضها بعض الشواذ . وقد يقصر بعض المشرعين في التحليل الفكاهة على انكلترا حسب ، ومن السهولة بمكان الدفاع عن مثل هذا الراي ، وذلك بالاشارة الى حقيقة كون الانكليز وحدهم هم الذين يتمتعون بالنكات على حساب جيرانهم . ولذا نحن نسرد القصص دائما عن الاسكوتلنديين واليهود والامريكان ، وهذا ما يبرهن على تحديدي السابق للفكاهة . فالغريب مضحك لا لشيء الا لانه يختلف عنا . وفي هذه الحالة ، قد يتكلم الغريب لغتنا بطلاقة ، ولكن لهجته غير الصحيحة تجعله نشازا بالنسبة الينا ، ومن هنا يتاتى ضحكنا وهزلنا .

والواقع ان مثل هذه الاحكام شوهت تشويها فظيعا ولم يكن سبب التشويه هذا غير الرياء الوطني . فنحن كثيرا ما نعد الشعب الارلندي شعبا مضحكا ، وعلة ذلك ان افراد الشعب هذا ، قد يقولون اشياء نحسبها نحن مضحكة في حين هي عندهم من الامور الاعتيادية . وكذا الامر مع الاسكتلنديين ، الذين يتكلمون الانكليزية بفصاحة ، ويتحكمون بمصائرنا ، ولذا حاولنا خلق النظرية القائلة بان الاسكوج اناس تعوزهم الفكاهة .. ومع كل ما يقال عن الامريكيين في حياتهم الواقعية ، فمن المؤكد ان في ادبهم فكاهة . ولكنهم ، مع ذلك ، لا يفاخرون بهذه الحقيقة . وقد كان ينبغي لمارك توين ان يكون بالنسبة الى الامريكيين ، بمثابة برنز بالقياس على الاسكوج ، بل افضل منه . والظاهرة البارزة في الفكاهة الامريكية هي ادعاؤها الامية . فارتيموس ورد مثلا يتظاهر بعدم قابليته على التهجي ، كما يتظاهر مارك توين بقصوره في هذا الشان . اما ليكوك فهو يمتعنا



*

لايقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

في الولايات المتحدة ١٠ دولارات

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ٢٥ ليرة كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

*

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

*

تليفون : الادارة ٢٣٨١٩ — المنزل ٢٥١٣٩

Tél. Direc : 23819 — Dle. : 25139

*

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : البير أديب

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت — لبنان

بالسخرية من نفسه والضحك عليها . ثم ان تهكم لويل فيه شيء ثقيل ... ويكفي الان ان نقول بان الامريكيين كالانكليز والسكوجيين يملكون تقاليد ادبية من الفكاهةغير المتهكمة .

وبعد ، فان الادب الضاحك هو حلوى الفترة التي اعقبت الثورة الفرنسية ، وهو حلوى الشعوب التي تتكلم الانكليزية الا اذا فهمت من كلمة فكاهة معنى (التهكم) ، وقد حان الوقت لنحاول وضع تحديد لمعنى (التهكم) والعلامات التي تميزها عن الفكاهة الاعتيادية. ومن الواضح — في بدء ما نريد قوله — ان الكاتب الذي يضحك على نفسه لا يكتب تهكما ، الا اذا كان متصنعا متكلفا . كما ان (الافكار المفرحة) و (مذكرات نوبودى) و (الشريد في الخارج) و (سيدتي) لا يمكن ان تعد من الكتب التهكمية . ففي كل هذه الامثلة يمتاز المؤلف بالرحمة الجديرة بالقديسين ، واقصد بها تلك الرحمة التي يعرف بها فليب نيري — وهي تلك الميزة التي تجعل منه موضعا للضحك بالنسبة الى القراء .

اما التهكم فهو على النقيض من هذا الامر ، اذ ان الكاتب الذي يتناوله ، يحصن نفسه من كل السخافات والاخطاء التي يفضحها . ولنضرب مثلا بارزا على ذلك دكنز ، فهو ليس من الكتاب التهكميين حين يعرفك بالسيد (ونكل) اذ لا دليل هناك يجعلك تشعر بان دكنز يجيد الرماية خيرا من السيد ونكل . ولكنه عندما يعرفك بالسيد بمبل تجده قد اصبح احد التهكميين ، وعلة ذلك انك تحس هنا بتفوق دكنز على السيد بمبل في طبخ الدراج . ومن ثم فالكاتب الهزلي يركض مع الارنب ، على حين ان الكاتب المتهكم يصطاد فرائسه بكلاب الصيد .

والواقع ان في التهكم من الازدراء ما هو اقل من التقريع .. ، ففي كتب افلاطون شيء من التقريع وهذا ما يمكنك العثور عليه في الاناجيل ايضا . اما غالزوردي الكاتب المعروف بتقريعه ، فقليلون يسخرون منه ضاحكين.
هذا ، في حين ان التهكم يستعير معداته من الكاتب الفكاهي ، اذ الشخص الذي ينصب عليه التهكم ينبغي له ان يقفز بين فجوات المخاطرات المستحيلة والاحوال الباعثة على الضحك . ومن هنا فالخلاف جد كبير بين (الاناني) و (دون كيشوت) . ومع هذا ، فالضحكة التي يستفزها التهكم فيها خبث وحقد دائما . ومن اجل هذا نسعى جهدنا للتملص من الضحية ، حتى لا ينالنا السوط بضرباته.

وبعد ، فما هي العلاقة بين التهكم والفكاهة ؟ ايهما الاصل وايهما الفرع ؟ ايهما العضو الطبيعي وايهما النمو الخبيث ؟ ولقد قلت من وهلة يسيرة ان التهكم يعتمد على الفكاهة في اسلحته ، وهذا ما لا بد من الاعتراف به . ثم ان انعكاساتنا عن امور الحياة ، منها ما هو هزلي ومنها ما هو جدي ، فالانسان الطيب الطوية يقنع برؤية الجانب اللطيف من الحياة . اما الكاتب الهازل ، فيستخلص من الجانب الجدي اشياء يبني منها عالما خاصا لنفسه ، فيه شخوص غريبة تقوم بمغامرات سعيدة مضحكة . فهنا يتحارب الناس مع اخطائهم ، ويتألمون بسبب الاهانات التي تلحق بهم . وقصة ذلك كله مدعاة للراحة والاستجمام ، وبخاصة عندما يكون ذهنك منهوكا بحقائق الحياة المرة . وهذه — على ما نظن — هي منطقة (ميوز الهزلية) وليس التهكم الا انتهاكا لحرمة هذه المنطقة .

انا لا اؤكد نظريتي هذه بشواهد قاطعة ، وانما انا اعرضها للمناقشة ، لان اعتبار العلاقات بين الفكاهة والتهكم فيه شيء كثير من تشويه التأريخ . فتصور التهكم كاتجاه خاص من اتجاهات الفكاهة معناه نبذ الحقائق الناصعة التي سبق لنا ذكرها . ان الفكاهة خاصة بعصر معين ، وحضارة معينة ، في حين يشمل التهكم جميع العصور وكل الحضارات والبلدان .

اليس ، اذن ، من المعقول ان نعد التهكم وظيفة طبيعية من وظائف العبقرية الانسانية وان نحسب الفكاهة التي لا صلة لها بالتهكم تشويها لهذه الوظيفة وابتعادا عما هو طبيعي ؟ ذلك بان احساسنا الفكاهي ليس — في تطبيقه الاصلي — من العاب الاطفال ، بل هو سلاح مميت في تأثيره ، عهد الينا لفضح زيف العالم وهتك ريائه . قد يحمي الظالم المتعسف نفسه بالحديد ، ويحيطها بالحرس ، وقد يرسل عيونه وجواسيسه في طول البلاد وعرضها ، حتى يتمكن من القضاء على حرية الكلام ، واسكات الانتقاد . والانكد من ذلك انه ربما يتمكن من تخدير ضمائر رعاياه بالتاريخ المزيف والمنطق السفسطائي ، لكي يجعلهم يعتقدون به كما يريدهم . اي ان يكون نصف اله ، مبعوثا من السماء لانقاذهم . ولكن الشيء الوحيد الذي يخشاه هذا السلطان هو القلق الذي يسيطر عليه عند مواجهة عبيده . انه يخاف شيئا مهما ، ذلك هو الضحك . وهنا يقف الكاتب التهكمي حيث ينبغي له ...

ثم ان التهكم له من المجالات اوسعها ، فهو لم يأت الوجود الا لسحق الحماقات التي تراود المخلوق الانساني بصورة مستمرة وبغير انقطاع . وكل انسان من التواضع بحيث يدرك ان التهكم موجه اليه منصب عليه ، دون جيرانه ، يستفيد اعظم الفائدة من هذا التهكم لانه يطهر جهازه الروحي . وهكذا ، فعلى كل انسان يقع في هوة الحب ان يقرأ (الاناني) كما يجب على كل معلم — قبل بداية السنة المدرسية — ان يطالع كتاب برادلي (تقاليد لانشستر) ومن هنا ، فالتهكم نظام جيد يضبط المتهكم عليهم ، اما تأثيره في الكاتب التهكمي ، فأمر فيه نظر ...

ولما كان الدافع لكتابة التهكم نتيجة الاخفاق . ولما كان الحب غالبا سبب الاخفاق ، فلا نعجب اذن ان يكون معظم المتهكمين من اعداء المرأة ، منذ ايام سيمونيدس الامرغوسي ، ذلك الرجل الذي قارن المرأة باكثر من ثلاثين نوعا من انواع الحيوانات ، فكانت نتيجة هذه المقارنة خسرانا لها وحطا من قيمتها. ولذا فالبؤس هو الذي يحمل الانسان على الضحك . وهذا السلاح ، على ما اظن ، هو الذي يتوسل به طيبو القلب ، حين تنعدم المشاحنات الدموية ، فيصوبونه الى الهدف الذي يبغون بكل تكاسل وتراخ ، ومن هنا تنبعث الفكاهة .

وبكلمة اخرى ، ان الفكاهة حين تنفصل عن التهكم تفقد مفعولها وتستنفد غرضها . وعلى هذا ، فالضحك من المتفجرات القاتلة ، ولكن الخراطيش التي يتقمصها ، تعرف اتجاه المرمى ، وتدرك معنى الاصابة المميتة ،والوقت الذي يحق فيه التسديد .

العراق — بعقوبة **يوسف عبد المسيح ثروة**

قصة قصيرة

بلا أمل

بقلم سمير تنير

✱

اليوم احد ، والوقت اصيل ، والطقس جميل . السماء الزرقاء تبدو فيها غيمات رفيعة مذهبة كأنها رغوة الخمر .

كنت على وشك مغادرة البيت، في نزهة الى البحر . ولا ادري لم اداوم منذ مدة على الذهاب الى البحر . ربما لانه يداخلني شعور بان الحرية تمتزج في ... باعماقي ، عندما انظر بنهم الى شراع يشق طريقه وسط الموج .

كان الهواء ساكنا لا حركة فيه ، لكنك تحس برودة لذيذة كبرودة الماء المثلج قبل ان تشربه . ومن وقت لاخر تسقط ورقة صفراء من اوراق الشجر .. تتهادى من اين ؟.. من السماء !

شاركني مقعدي « الخاص » على « الكورنيش » عجوزان .. رجل وامراة . الرجل يلبس معطفا شتائيا سميكا ، وقد تعاقدت يداه حول عصا ضخمة . والمراة تحمل صنانير الصوف وامامها حقيبة صغيرة . جلسا صامتين لا ينبسان بحرف . كان هذا شيئا مزعجا بالنسبة لي ، فقد سئمت ترديد افكاري وتخيلاتي الخاصة التي اجتررتها مئات المرات . كنت اتلذذ بسماع ما يقوله الناس . والحقيقة انني اصبحت خبيرا بالثرثرة . كنت التقط خيط الحديث فاذا بامور كثيرة تتكشف لي في لحظة واحدة .

ورمقت العجوزين بطرف عيني . ربما يذهبان سريعا . الم يات الاسبوع الماضي رجل وامراة بمثل عمريهما ، صدعا راسي بثرثرتهما . المراة تنطلق بالكلام فاذا حاول الرجل مقاطعتها رفعت من صوتها فيصمت المسكين خوفا وحذرا . وقد حاولت وقتها ان احزر اسم عائلة الرجل، فصرت اراجع ملامح العائلات القديمة التي اعرفها .. ولكن عبثا .

العجوزان لا يزالان صامتين كتماثيل الشمع ! لا باس فهناك شيء اخر يستحق المشاهدة والتحليق ، هناك وجوه الطوابير الطويلة العريضة التي تتسكع . والسيارات الجميلة التي تتهادى من الغروب حتى مطلع الشمس . والاضواء اللامعة التي تعكس على وجوه الناس ظلالا فاترة من الفتنة .

هناك الكراسي الكثيرة المتناثرة على الارصفة وفي المقاهي واللافتات المغرية ، والنوافير التي تتفجر خيوطا بارعة من الرذاذ .

هناك مواكب الجميلات الرائحة الغادية ، تسير كأنها في استعراض وجماعات اخرى تتمشى لتثرثر وتحيي او لتشتري كعكا او « بذرا » من الباعة الدائرين كالدبابير . والاطفال يلعبون ويقطون كالفراشات المرحة وهم يلبسون الملون والمزخرف عليه الارانب والاسود والثعالب .. والشبان يمشون بخطوات مترنحة يتوقفون .. يحدقون .. وهم يوزعون التعليقات يمينا ويسارا .

اما بعض الذين جلسوا على المقاعد ، فهم نفسهم الذين ياتون في كل اسبوع ويحتلون المقاعد . وقد لاحظت فيهم شيئا مضحكا فهم لا ينقطعون عن الثرثرة لكن بعضهم يجلس صامتا كالتمثال . اما في نظراتهم فقد قرات معاني الضيق كأنهم كانوا محبوسين في غرف سوداء او في صناديق .

الغموض يحلق فوق البحر ! واعل ذلك هو السبب الذي يجعل الناس يجيئون في طوابير الى البحر ويطيلون النظر الى الماء والموج والمراكب . ان مشهد اللانهاية الزرقاء يجعلك تحس باعماقك انك امام النهاية . على شفا الهاوية . تشعر كانك مقيد لاتستطيع الافلات . ان شعورنا بالقيد يحطم فينا الخيال والعاطفة . ان اقذر شراع يرسو في الميناء ينتشل نفسه بعد يوم او اثنين من الوحل ويبحر مع الموج كروح هائمة وسط نور الغروب الوردي .

الشمس على وشك المغيب . واضواء الافق البعيدة ترصع السماء بنصف دائرة حمراء داكنة . بعد ساعة يخلو المكان ، وتبدو القوارب من بعيد كالنجوم الراقصة على صفحة الماء .. كل مصباح قارب .. وكل شراع ظل !...

واخيرا .. قام العجوزان .. ولم ينبسا بحرف واحد . واحتلت مكانهما بسرعة عائلة صغيرة . اب وزوجته وولداهما الاب نحيل طويل كالريشة يضع على عينيه نظارات سميكة . وهذا ما جعلني اتذكر ذلك العجوز الذي كنت التقي به اربع مرات في الاسبوع لاقرا له الجريدة . كان هو الاخر يضع على عينيه نظارات تنزلق على ارنبة انفه . ان ملامحه لاتزال مستقرة في ذهني الوجه الهش المجعد ، والعيون الغائرة، والفم المنفرج، والانف الرفيع المتشامخ تنزلق عليه النظارات . لقد كنت اقرا له الجريدة وهو مغمض العينين ، فاذا رفع راسه ولمع في عينيه التساؤل قال : « انت ممثل ؟ انت تقرا الجريدة كانك ممثل . »

فاطوي الجريدة كاني اطوي اوراق دوري في الرواية : « نعم .. لقد اشتغلت ممثلا مدة طويلة . » وما كنت اجسر على القول انني عامل مسكين مطرود من مطبعة المعلم « سليم » الكائنة على ملتقى الزواريب في حينا . فالمعلم سليم يبعث في نفسي شعورا غريبا . لا ليس هو الخوف بالضبط فما كنت

اخافه قصتي معه لا تسر ... على كل ليس الـذنب ذنبي . لقد كنـت « اوضب » ورقة النعوة توضيبا مدهشا وهو الذي استفزني بشتائمه التي لا تنقطع ، فاذا بالصفحة تنزلق من يدي ، فتنفرط احرفها كحبات انعقد . لا .. لم اكن اخاف شتائم المعلم سليم التي انهالت علي وقتئذ كسيل دوش من الماء الساخن ، لكنني خفت قطعة الحديد التي هجم بها علي فهربت منه ولم اعد حتى الان .

وعادت عيناي الى البحر تسالـه وتستلهمه . كانت اضواء القوارب من بعيد تبدو كأضواء المصباح الشاحب على منعطف الزاروب كأن تلك الاضواء اضواء شموع يحملها رهبان يطلعون الى الدير

اين قرات هذا التشبيه الجميل.

يا الهي ما اسم ذلك الكتاب ؟..

افقت من تساؤلي على صراخ الطفلة التي كانت تلعب وتنط مع اخيها . وخيل الي والطفلة ترفع يديها انها ترفعهما الى السماء ، وهي تبدو لي من خلال النور الباهت

لم اتنبه للحديث الدائر بين الرجل وزوجته فقد انشغلت بتتبع الاكورديون . تعزف موسيقى « جميلة » الحالمة .. والنغمة تعلو وتعلو في اذني حتى ظننت ان الناس كلهم سيجتمعون يغنون ويرقصون اصوات الشبان اللاهين واصوات الصغار .. واصوات الكبار القوية تنضم اليهم . وبعدها .. انا .. ساقوم واشترك معهم !

واحسست بغلالة رقيقة من الدمع في عيني ، وتطلعت مبتسما الى العائلة الصغيرة امامي .

الساعة العاشرة . لم يبق احد . والهواء اصبح اكثر برودة .

قمت اتمشى الى البيت .

في شارع مظلم كان شبح يقف على الجانب الاخر من الطريق منقبض كالمظلة المغلقة .

ومررت به .

كانت في عينيه عاصفة .

دار فجأة وقال :

ـ لقد مررت على قدمي .

ـ عذرا لم انتبه .

ولم يدعني اكمل . بل فاجاني بلكمة قاسية فتراجعت الى الوراء . وعلى الرغم من اني تجاوزت الخمسين فقد هجمت عليه ، فاذا به يتلاشى ويسقط الى الارض ويتمسك بقدمي . واحسست ان كلابة قاسية تعتصرها وحاولت الافلات لكن عبثا . كان يصرخ بكلمات لم اتبينها جيدا خرجت من فمه اشبه بالبكاء .

ـ اترك قدمي يا ...

ولم ادر كيف خرجت من فمي احدث المستوردات من شتائم ولعنات المعلم سليم في سرعة اشبه بولولة العاصفة غير ان هذا لم يفد شيئا فقد بقي ممسكا بقدمي وضاقت انفاسي. واستجمعت قوتي ، ولم اشعر الا وانا آخذ راسه بيدي ادق به الارض وبرجلي اهوي بها على جسده .

وتحسست يدي .. كان عليها خيط من دم يتلوى كأفعى ويشع بنور .

وتجمع حولنا الناس . لا ادري من اين اتوا كأن الارض انشقت عنهم فالشوارع كانت تبدو خالية منذ قليل تجمهروا .. كل يعلق ويثرثر .

ـ بسيطة

ـ سوء تفاهم .

وتقدم مني صديق اعرفه يعمل موظفا في الشرطة . وقال :

ـ هات ما معك .. انه سيتغاضى عن الامر ويمشي في طريقه .

وتحسست جيوبي . كان معي ليرتان دفعتهما اليه .

وتقدم صديقي الرجل الملقى على الارض وهمس اليه .

ـ هذه ترضية .. قم هات يدك .. تصافحوا .. اغسلوا القلوب بسيطة .

وقام الرجل فوق عينه جرح صغير يسيل منه الدم

ومد الي يده

كانت في عينيه عاصفة .

ومددت اليه يدي .

وتصافحنا ...

ورايت عينيه تضحكان .

ومد يده الى الجرح ثم اخرج منديلا جفف به الدم .

وبدا الناس يتفرقون وهم يعلقون تعليقات شتى

ـ بسيطة .. بسيطة .

وقال رجل عجوز .

ـ اهل هذا البلد « قبضايات » لكنهم يهدأون بسرعة انهم كالكازوز يفورون ثم يسكنون .

واخذني صديقي وتمشينا .

وقال : « قد تعجب اذا قلت لك ان مهنة هذا الرجل هي المشاكل » .

وقفت مذهولا وقلت :

ـ اتعني انه اثار المشكلة افتعالا لكي يقبض الليرتين

ـ نعم .. انه يثير المشاكل بلا سبب سوى ان يقبض بعد ان يتحمل ما يتيسر من الضربات واللكمات قد تسيل دماءه وقد يدق راسه لكنه لا يهتم ، لا يهتم الا بالمال الذي يقدم اليه « ترضية » .. انه بهذا يحصل على ثمن حقنة المورفين التي تطول عذابه .. انه لا يستطيع ان يستغني عنها . انه لا يستطيع ولو وضعته في سجن فسيحطم القضبان ، سيلقي بنفسه من النافذة ... انه لا يستطيع .

وافترق عني صديقي .

ومشيت اقطع الدرب المعتم الى البيت .

كانت مصابيح الشارع تبدو وكأنها تكاد تختنق .

وخطواتي تصفع الطريق لتتجاوب مع دقات قلبي ...

ولفح الهواء البارد وجهي .

واحسست ان شيئا في اعماقي يبكي .

سمير تنير

الزورق النائه

٥

أيها الزورق .. يا حلم الليالي الغابرات
فيك شوقي وحنيني ، والاماني الضائعات
فيك دمعي وأنيني ، ورفيف الاغنيات
فيك يأسي وجراحي ، وحطام الذكريات
وعلى حضنك تغفو أمسياتي الفانيات

طال مسراك وحيدا بين أهوال البحار
أيها الزورق .. غابت عنك أضواء النهار
والدجى العاتي طوى اعصاره النجم.. فغار
أيها الزورق .. تهنا ، بعدت عنا الديار
ذلك الساحل ناء ، دونه ألف قرار !

كم هفونا ، أيها الزورق ، للشاطي الجميل
للضفاف الخضر نشوى تحت أفياء النخيل
للشراع السابح المرماح في صمت الاصيل
للزهور الناعسات البيض في الفجر البليل
لغناء الطير ، للانداء ، للظل الظليل

كم هفونا ، أيها الزورق ، للحن الرقيق
من شعاع النجم ينساب سماويا طليق
لصدى أنشودة تسري من الغور السحيق
تتسامى الروح فيها لذرى الصمت العميق
كم هفونا ، أيها الزورق ، للقلب الصديق

كم حلمنا ، أيها الزورق ، في دنيا الخيال
كم .. وكم شدنا قصورا باذخات من رمال
وسكبنا النور فيها ، حالما ، عذب الظلال
أيها المسكين .. أوهام رؤانا وضلال
دونها صخر بليد . .دونها موج المحال !

في العباب الصاخب المجنون..في الموج الغضوب
أيها الزورق .. تهنا ، سخرت منا الدروب
حطمتنا الصخرة الرعناء في ليل الغيوب
أيها الزورق .. لا شيء سوى القاع الرهيب
يحتوينا في سكون .. ليله الساجي الكئيب

العراق — المقدادية　　　　الزهرة البيضاء



خوف حر

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد ـ من مجموعة قصص الرحالة والمكتشفين
١٠٢ صفحة ـ منشورات دار المعارف بمصر

بين ايدينا مجموعة جديدة تصدرها دار المعارف المصرية باسم (مجموعة قصص الرحالة والمكتشفين)... ظهر منها حتى الان اربعة كتب هي « خوف حر » لعبد العزيز عبد المجيد ، و « فاسكو دي غاما » و « والتر رالي » لمحمد عبد الغني حسن ، و « عبد اللطيف البغدادي » لعبد السلام العشري .

والغاية من هذه المجموعة تعريف حياة الرحالة والمكتشفين الى الناشئة العربية باسلوب قصصي مشوق .. فيطالع القارىء كتابا في مائة صفحة ، محلى بالرسوم ، فيحصل على معلومات مركزة عن حياة تغنيه عن بذل مجهود كبير في التحقيق والتنقيب .

تستهل هذه السلسلة كتبها بقصة حياة الرحالة الفرعوني «خوف حر » الذي عاش في مصر قبل اربعة الاف وخمسمائة عام .. ويسميه علماء الاثار المصرية « حرخوف » اي المحروس بالاله حور .

ولهذا الرحالة الفرعوني القاب ورثها عن ابيه ، واكتسبها بجده وجراته ، وهي : سمير الملك الوحيد ، والكاهن المرتل ، وحامل الخاتم الملكي ، ونائب الملك في نخن .

ولد في بلاد الالفنتين (اسوان اليوم) ، وكانت تسمى باللغة المصرية القديمة « تاستي » ، اي ارض الرامي بالقوس .. ودرس الفتى بمعبد الاله العظيم « خنوم » الذي خلق الناس من طين ، وسواهم على عجلة كما تصنع الاواني الفخارية .

ولما بلغ من العمر الرابعة عشرة ارسله ابوه الى عاصمة البلاد « منف » او منفر ، في عهد الملك بيبي الاول ، ملك الوجهين البحري والقبلي ، ليتم تعليمه مع ابناء الامراء ، وليتقن فنون الصيد ،والرماية، والقتال ، ومنازلة الوحوش الضارية .. وليستزيد من المعرفة والحكمة التي يدرسها الكهنة في معبد الاله بتاح العظيم .

وحين بلغ خوف حر منف راي الناس يحتفون بيوم النيل ، وقد حملوا تمثالا خشبيا يمثل اله النيل ، وهو في شكل مخلوق آدمي رأسه على هيئة رجل ملتح ، وجسمه جسم امراة لها ثديان بارزان ، وبطن مرتفع يشبه بطن المراة الحامل ، رمزا للخصوبة ، وتزين راس هذا التمثال حزمة من نبات اللوتس والبردى ، وهما نباتان يرمزان لاتحاد الوجهين البحري والقبلي .

ويقضي خوف حر خمسة اعوام في منف يموت في اثنائها الملكبيبي الاول ويخلفه على العرش ولده الاكبر فرعون « مرن رع » ، وكان زميلا للرحالة في الدراسة والمبارزة .

ثم يقوم برحلته الاولى في النيل بمفرده ، ويعقبها برحلة ثانية الى منطقة الشلال الاول برفقة والده والملك مرن رع ، وهناك امر فرعون ان تنقش له لوحة تمثله واقفا ومتكئا على عصاه الطويلة ، وامامه رؤساء النوبة ساجدين ، وقد نقشت عليها ايضا هذه العبارة : « وصول جلالة الملك مرن رع الى الاراضي الواقعة بعد الاقليم الصخري لمشاهدة هذا الاقليم ، ولقبول الخضوع والمديح من رؤساء وقبائل المازوي ، والارتت ، والواوات » .

وقام عوف خر برحلته الثالثة الى بلاد يام (اقليم النوبة في السودان اليوم) وعاد الى بلاده ومعه عددا من الفيلة وكميات من الابنوس ، والعاج ، وجلود النمورة .. ولما مات ابوه اصبح هو الرحالة الاول في مصر الفرعونية .

وتوجه الفتى في رحلته الرابعة الى بلاد « ادثت » و « سثـو » (اي في منطقة دنقلة اليوم) ، واستمرت رحلته هذه ثمانية اشهر عاد منها وقد حمل حميره بالكثير من المحاصيل .

وذات يوم استدعى الملك مرن رع الرحالة وقال له : « اعلم يا خوف حر ان امامك رحلة اخرى فجهز نفسك لها ، وساعطيك كل ما تطلب من دواب للحمل ، ومعدات ، ومئونة ، واسلحة ، ورجال ..ولتسافر القافلة من العاصمة الجنوب مباشرة قاصدة ما وراء بلاد « يام » ، وانت تعلم ان التوابيت الملكية ، والتماثيل الملكية ، وادوات المنزل والزينة في حاجة الى الذهب ، ورجالنا يعملون في مناجم سينا ، وفي المناجم القريبة من البحر الاحمر .. ولكن ما نحتاج اليه من الذهب يزيد على ما نستخرجه من مناجمنا ، فاجعل همك ان تعود الينا باكثر ما تستطيع من هذا المعدن ، ولا تاخذ من سكان تلك البلاد غصبا ، ولا تغشهم اوتخدعهم او تخنهم بل عاملهم بالحسنى ، واجعل علاقتك التجارية معهم علاقة مبادلة ، ياخذون ما يحتاجون اليهمنالبضائع والامتعة التيتحملها معك ، وتاخذ منهم الذهبوحاصلاتبلادهم، وستكون مكافاتكفي هذه المرةعظيمة»

ورحل خوف حر الى بلاد النوبة للمرة الخامسة وانقذ زعيمها من هجمات قبائل التمحو الليبية ، وعاد الى منف ومعه مائة حمار محملة بالذهب ، والجلود ، والعاج ، والزيوت ، وخشب الابنوس .

ثم مات فرعون مرن رع وانتقل الى عالم الالهة ، ودخل افقه ، وطارت روحه الى السماء واتحدت مع قرص الشمس ، وامتزج الجزء الالهي فيه بجسم خالقه .. ونودي بالملك بيبي الثاني فرعونا علىمصر.. واقامت الملكة الام حفلة رائعة تخللتها فصول من مصارعة الفتيان ، ورقص الفتيات ، والمغنون والمغنيات يقفون صفوفا بالبستهم الزاهية وهميتشدون:

يوم عيد يوم بشرى وسرور
يملأ القلب هناء ومنى وحبور
ومن الحقل تفوح نسيمات العطور
وعلى الهامات تلوح اكاليل الزهور
متع النفس ، وهلل ، وافرح
واشرب الكاس ، وغن وامرح
والبس من الثوب الجميل والخفيف
ومن الحلى تجمل بالثمين واللطيف
وبالحياة والملاهي والملذات تمتع
هل علمت ان ميتا غادر القبر ليرجع ؟!..

وبعد انتهاء السهرة سالت الملكة الرحالة الفرعوني ان يقوم برحلة جديدة يكتشف فيها مجاهل « ارض الارواح » .. اي السودان ، ويعود بنماذج من خيرات تلك البلاد ، فتوجه الى الصحراء النوبية واجتازها في اسبوع الى ان وصل مناطق الادغال .. يقول الرحالة الفرعوني : « .. واخيرا رأينا ارضا منبسطة امامنا ، وان كانت الادغال ما زالت تحيط بها من جميع الجهات .. وفي هذه الارض المنبسطة رأينا مباني اشبه بالقبور و أعلى منها قليلا ، ونظرنا حولنا فلم نر اي انسان او حيوان ، ولكني لاحظت ان فوق الاشجار حيوانات تشبه القرود ، لها عيون واسعة ولامعة ، وتصرخ وتصيح بكلمات ومقاطع من الاصواتالغريبة. وفجاة انهالت علينا سهام صغيرة من فوق الاشجار ، وسرعان ما تبين

لنا انهم اقزام من البشر وان ما رأيناه اشبه بالقبور هي مساكنهم .. فتذكرت على الفور ان الملوك تغرم بهم ، ويشترونهم بأثمان غاليــــة ، ويشبهونهم بالاله « بس » رب الضحك والمسرات .

وعاد خوف حر ومعه قزما من قبيلة الاقزام الزنجية التي اكتشفها ، وقبل ان يصل الى منطقة الشلال الاول وجد رسولا من فرعون في انتظاره يحمل له رسالة ملكية ـ وهذه الرسالة منقوشة اليوم على مقبرة خوف حر ـ يقول فيها : « مرسوم ملكي للسمير الوحيد ، والكاهن المرتل ، ومدير القوافل خوف حر .. ولقد ذكرت في خطابك انك احضرت معك المحصولات العظيمة الطيبة ، التي قدمتها « حتحور » سيدة اماو الــى حضرة ملك الوجهين القبلي والبحري « نفر كارع » ببيي الثاني الــذي يحيا ابدا مخلدا ، وقد ذكرت في هذا الخطاب ايضا انك احضرت معــك قزما يرقص رقصا مقدسا في ارض الارواح ، مثل القزم الذي احضــره حامل الخاتم المقــدس « باوردد » من بلاد « بنت » في عهــد الملك « اسيسي » ، حقا انك فعلت ما يحبه سيدك الملك ويأمر به ..وجلالتــه يرغب في ان يمنحك كثيرا من الشرف العظيم حتى تصبح زينة لاحفادك أبـد الدهر » .

استقر الرحالة الفرعوني بعدذلك في مدينة الالفنتين ، وتزوج احدى قريباته ، وبدأ يشرف على املاكه وعلى ادارة مقاطعته .. وبلــغ سن الثمانين واصبح له الكثير من البنات والبنين ، ولما كان على فراش الموت استدعى كبير الكتاب وامره ان يسجل وصيته واليكم نصها : « انــي سأموت اليوم فادفنوني في مقبرتي باعلى الجبل ، ولتكتبوا عليها قصة رحلاتي ، وان تختموها بهذه العبارة :

« الف رغيف ، وعشرة الاف اناء من الجعة لصاحب هذا القبـر ، سيد الرحالة والسمير الملكي الوحيد : خوف حــر !... »

نجاتي صدقي

التربية والتعليم بين عرب فلسطين ايام الانتداب

للدكتور عبد اللطيف الطيباوي ـ باللغة الانكليزية دار لوزاك وشركــاه المحدودة بلنـدن

لم يترك المؤرخون والكتاب السياسيون ناحية من نواحي « فلسطين » كموطن ، وبلد مقدس ، وقضية سياسية ـ الا وتطرقوا اليها وتوسعوا في شرحها . وعلى الرغم من كل ما كتب حتى الان في هذا الموضوع ،فقد كانت هنالك ثغرة لا تكمل مكتبة « فلسطين » الا بسدها الا وهي ناحية التربية والتعليم في تلك البلاد ابان الانتداب البريطاني عليها . واذاكان قد تطرق اليها احد فانما كان ذلك عرضا وعن غير اهتمام جدي بهــذا الموضوع مع ما له من اهمية بالغة في تعريف الجيل الطالع باوضــاع البلاد كاملة وبتاريخها وافيا .

فجاء الدكتور عبد اللطيف الطيباوي بكتابه الجديد « التربيــة والتعليم بين عرب فلسطين ايام الانتداب » ـ وهو موضوع باللغــة الانكليزية ـ ليكون دراسة شاملة جامعة دقيقة وحجة ساطعة في هــذا الباب . ولا غرو ان يفي الدكتور الطيباوي هذا الموضوع حقه ، فقد أمضى قسطا كبيرا من سني حياته العملية بعد تخرجه في الجامعة الامريكية في بيروت في حقل التربية والتعليم حتى تاريخ انتهاء الانتداب . وفي هذه الاثناء احاط بالكثير من تطور سياسة حكومة الانتداب بهذا الشأن . فهو حين يتحدث في موضوع كهذا يتحدث حديث خبير مطلع ، مضافــا الى ذلك دقته العلمية في تحري الحقائق واثباتها .

والكتاب مقسم الى ثمانية فصول عدا المقدمة والتمهيد والملاحــق الثلاثة والرسوم البيانية والخرائط التفصيلية .

وفي التمهيد عرض تاريخي سياسي موجز لقضية فلسطين . وقد اعجبت شخصيا بما حواه الفصل السابع من تحليل واقعي مجردلسياسة حكومة الانتداب من النواحي التعليمية والدينية والقومية . كما انني وقفت في الكتاب بوجه عام على معلومات واحصاءات رسمية يجد فيهــا كل من يعالج قضية فلسطين السياسية خير معين له على تفهم الحقائق وربط الوقائع واستخلاص صورة متقنة للوضع في تلك البلاد ايــام الانتداب . واغلب الظن انه لولا هذا الكتاب لبقيت هذه المعلومات وهذه الاحصاءات نسيا منسيا في طي الاضبارات على رفوف الاهمال .

وما ان صدر هذا الكتاب حتى أقبل عليه مؤرخو قضية فلسطين من الغربيين اذ رأوا فيه تحفة نفيسة تعينهم على الوفاء لمهمتهم وهي الكتابة بصدق وامانة وانصاف لوجه التاريخ . وسارعت الجامعات العالميــة الى اقتنائه وسد الفراغ الذي ظل مائلا ردحا طويلا من الزمن في زاويــة « فلسطين » من مكتباتها .

واني انصح كل من يجيد الانكليزية من ابناء العروبة بمطالعة هــذا الكتاب واتمنى على الدكتور عبد اللطيف الطيباوي ان يترجمه الــى العربية تعميما للفائدة .

محمـود الاكحـل

قنــاديل اشبيليــة

للدكتور عبد السلام العجيلي ـ مجموعة قصص ـ ١٤٧ صفحة ـ مطابع دار الكشــاف بيروت

لا اريد ان اقدم الدكتور عبد السلام العجيلي الى قراء العربية فهو أكبر من ان يقدم اليهم واعرف من ان يجهلوه . ولــكنني اريد ان أقول انه في مقدمة من استطاع تطوير الاقصوصة العربية الحديثة كــي تستكمل شروطها الفنية اللازمة ، وخير من عمل على الارتفاع بها الــى المجال العالمي حيث الكمال الفني والاسلوب الجميل الرائع واللغة المتينة الطيبة ، الى جانب القدرة على التعبير القوي الاخاذ . كما يظهر ذلك جليا واضحا في مجموعته الاخيرة هذه ، التي تتألف من سبع قصص ، ساحاول عرضها في هذه العجالة .

ولابدأ بالقصة الاولى ـ قناديل اشبيلية ـ وهي القصة الرئيسية في هذه المجموعة . لا أعرف لما هزتني هذه القصة هزا قويا واعجبتنــي اعجابا كبيرا حينما سمعتها للمرة الاولى ، حيث قرأها علينا المؤلف منذ سنة وبعض السنة في « الجمعية السورية للفنون » ..؟! ولكنني اعرف بانها لم تهزني ذلك الهز كله او تعجبني ذلك الاعجاب كله عندما قرأتهــا للمرة الثانية .

فانت لا تني تتنقل بين صفحات القصة وتتقدم فيها ، والجو الغامض الساحر يلفك ويأخذ بلبك ويغمرك بغموضه وابهامه وروعته الفائقــة ، ولا يني المؤلف يبدع في خلق هذه الاجواء الساحرة المروعة ، وتندمــج انت في اجوائه هذه وتعيش بين أطياف القصة وابطالها العجيبين مثل « هيا سنتا » والمرأة الغامضة صاحبة (مانيانا) وأعجبهم « آليــدو » .. حتى تصل او يصل بك المؤلف الى تلك العقدة التي ارادها في القصة ، وهي تجسيد احاسيس بعض العرب الذين يتعلقون بامجادهم الغابــرة . فتراجع او يجعلك المؤلف تتراجع عن تعلقك بتلك الامجاد الماضية السالفة ، كما تراجع هو « وفي جهد البائس انتزعت قدمي من موقفهما وانفلتت مسرعا الى باب الزقاق المقفر . وهناك ملأت صدري من الهواء الطــلق

وزفرت زفرة فرجت عني ، ثم انطلقت مسرعا ، كاني أعدو ، الى المدينة وانا احس ان قناديل اشبيلية لا تزال تلقي علي شباك انوارها وتطاردني باشعتها لتجذبني ، كما جذبت قبلي البروفسور السيدو ، او السيد باقلادة ، الى هاوية عالمها المسحور ». ذلك التعلق الذي قاد الكثيرين من أفراد امتنا العربية الى الهاوية ، حيث لم يكن تفكير هذه الفئة يتعدى التفاخر بالامجاد الماضية .. التفاخر بها دون التطلع الى واقعنا والصعود به الى الاعلى والسير به الى الامام في ركبالامم المتقدمةالصاعدة دوما الى العلاء .

فالقصة ، من حيث الكمال الفني والسرد الطيب والتسلسل المتزن من اروع ما يمكن من القصص ، لولا ذلك الهروب من شرح اسرار ابطال القصة في ختام القصة . اما من حيث المضمون ، من حيث واقعية حوادث القصة ، فتلتقي في عدم امكانية وقوعها ، حيث يوجد قصر اشبيلية ـ ذو القاعة المثمنة النوافذ والاعمدة المزدوجة في أركانها ـ المماثل لقصر مكناس .. تلتقي مع المؤلف في قصة « سالي » حيث توجد صورة عمه في ذلك البيت في ضواحي استكهولم .

فاذا أتينا الى القصة الثانية ـ الليل في كل مكان ـ نجد انها قصة يتحدث فيها المؤلف عن القلق السائد في القرن العشرين والناتج من تاثير الحرب العالمية الثانية ، هذا التاثير الذي ترك طابعه المفزع في نفس كل انسان تقريبا وفي نفس الاوربي على وجه الخصوص .

ومن خلال رسائل « مارليت » بطلة القصة ، عرض المؤلف مشكلة التمييز العنصري ونظرة الاوروبي ـ او الاوروبية ـ المتعجرفة الى الملونين « اني امرأة حمراء الشعر ، زرقاء العينين ، وردية البشرة ، وكذلك ولداي فريتز وهانس . سنكون في أي موضع نحله ، في اتحاد جنوبي افريقيه في الذروة من الاعتبار ... » ثم عرض للثورات الاجتماعية وقضية فلسطين ، ومع ان عرض الكاتب لهذه القضايا جاء طبيعيا ومحبوكا في سياق القصة ، فقد كان ينقصه العمق والتحليل الدقيق لهذه المشكلات الهامة .

اما قصة « الشباك » فهي من أقوى المجموعة في الحبكة القصصية والكمال الفني والاسلوب الجديد الذي سار عليه المؤلف في عرض القصة ، حيث نرى الى هذه الطفرة الرائعة بين هواجس عارف في اخر ليلة له وبين حديث ابي سليمان في بداية روايته ، من أبدع الاساليب في الانتقال من فكرة الى فكرة او من موضوع الى اخر في الفن القصصي والحبكة القصصية ..! انظر الى « رحمه الله » هذه ما اروعها في تقرير مصير عارف ـ بطل القصة ـ في القصة « ان الخلاف الذي كان بيني وبينه ، رحمه الله ، لم يكن اهلا لان احمل له ضغينة في قلبي ...»

اما الموضوع فلم يعجبني فيه بعض نواحيه لا سيما والمؤلف طبيب ورجل علم

فاذا كانت قصة « الرؤيا » وجدناها من أطيب القصص التي تعالج عقدة اجتماعية مترسبة في اغلب نفوس اهل قرانا العربية ، ألا وهي الايمان بكلام الاولياء وادعيائهم من قريب او بعيد ، باسلوب فكه ممتع لا يمل القاريء من متابعة خطاه وملاحقة اطرافه التي تسير بيسر وطرافة وروعة من اول سطر فيها الى اخر سطر . بالحقيقة لقد عولج هذا الموضوع من قبل اكثر من مرة ، ولكن معالجة الدكتور العجيلي له كانت من اسهل وارسخ المعالجات في الذهن والنفس والقلب . وقد دلل المؤلف على انه قادر متمكن من طرق أي موضوع ومعالجة اية فكرة بنفس القوة والثقة التي يعالج بها قصصه التي اعتاد ان يكتب في نطاقها .

اما « بنادق في لواء الجليل » فقد تحدث المؤلف في قصته ، او قصصه هذه ، عن قضية فلسطين ، تحدث عن فلسطين ببساطة وطبيعية تكاد تقرب من الحديث العادي .. فلا هناك تضخيم او (نفخة) في الحديث عن هذا الجزء من وطننا العربي بل هي أحاديث تتواردتلو بعضها بعضا بيسر ودعة تامة . في القصة الاولى يكشف النقاب عن تلك الاصالة الكامنة في نفس « حسون » الصغير ، الاصالة العربية في كل مكان وفي كل فرد صغيرا او كبيرا ، فقيرا او غير فقير . هذه الاصالة التي ما زالت تتجلى في كل مناسبة او كل محنة تمر بها امتنا العربية من قريب و بعيد .

أما في القصة الثانية « بندقية الحقاب » فتظهر فيها تلك الروح الانهزامية التي نراها احيانا كثيرة في بعض الافراد ، ذلك الخنوع الذي يتمثل في حامل البندقية اللامعة الجديدة ، الهارب من مكان المعركة بحجة تنظيف البندقية واصلاح « لا خلل » فيها . انظر هنا ما هذا التفاوت الهائل في الوطنية بين « حسون » في بندقية فراضة الذيجاهد الجهاد كله ليحصل على بندقية فاسدة تنطلق في كفه وتمزقها وهو لا يبالي ، وبين حامل البندقية الحديثة الطيبة الهارب بها وبنفسه من ميدان المعركة .

انه ضرب من الكاريكاتور في التباين المضخم بين بطل البندقية الاولى وجبان البندقية الثانية الذي يقول عنه المؤلف « ما اجملها من بندقية ، وما اضيعها في يد جبان » .

فاذا اتينا الى بندقية الدكتور العجيلي الثالثة رأينا الى تلك الفئة المناضلة ، كيف تحارب الصهاينة والانكليز الى جانبهم الذين يمثلون جيشا ، عديدا في افراده ، قويا في تنظيمه وتدريبه وعدته ، تحاربهم ببنادق عتيقة بالية تنطلق وتدل على اصحابها في انطلاقها فتاتي اليهم بالموت الزؤام . ومع هذا تراهم يقاتلون مفضلين الموت على الانسحاب والهزيمة وبالتالي الهلاك على الجبن والعار ، كما يقول قائدهم الملازم محمد « نعم ، لقد قضيت برصاصة رشاش بعد ان فضحتني رصاصة بندقية في دلالة . قضيت هنا في فلسطين ودفنت في حفرة ضائعة بعيدا عن قبور الاهل والاصحاب .. ولكن أليس هذا خيرا من ان اعود ، كما عدتم أنتم ، محزونا خاسرا ذليلا ...؟» انها الروح العربية الاصيلة المتفجرة من ينابيع الكرامة والشرف والشجاعة .

اما « بريد معاد » فالحقيقة ان عبد السلام العجيلي يصل في قصته هذه الى القمة في تحريك هذه الاحاسيس المختفية في باطن كل عربي . انه ذلك الاحساس القوي الذي يمور في نفس كل عربي ليقربه من اخيه العربي مهما كان هذا الاخ بعيدا عن قلبه وروحه . فلا العمل ولا المصلحة ولا المال بقادر على الوقوف حاجزا بين العربي واخيه ، انما هي عاطفة قوية جياشة تجمع بين هذا وذاك ، واحاسيس ومشاعر واحدة تختلج في قلب كل واحد ، تربط بين قلوب افراد امتنا العربية ، وتقرب بين نفوسهم ، فيعيشون حياة نضال وبطولة واحدة ، ويحيون في قومية واحدة تحيطهم باطار من العزة والكرامة المصانة على الدوام . لقد جاء المؤلف يحرك تلك الطبقة الجامدة من سطح اعماق النفس ، لتنطلق الروح العربية فوارة جياشة من زوايا القمقم المحصورة فيه ، وتتجلى بأطيب مزاياها ، وتستوعب كل فرد من افراد الامة العربية لتنطلق بهم في النهاية نحو مثلهم الاعلى الذي يرغبون فيه . ثم يدلل على ان الاصالة العربية موجودة دوما ، انما هو لون من الخمول يغمرها احيانا لسبب من الاسباب ، ولكنها تنطلق في النهاية في الاجواء محلقة عالية : « هذه روح قد انطلقت من زوايا المظروف العتيق وراحت تتعاظم امام عينيه كانها مارد منطلق من قمقم ، مذكرة اياه انها كانت في يوم ما المنار الذي يهديه انها مثله الاعلى . »

انها من اجمل القصص القومية الرائعة التي كتبت في المجال القومي ، لا يعلو عليها في هذا النوع من القصص سوى رائعة المؤلف « كفن حمود » ، هذه القصة التي بلغ فيها ذروة القصص القومي واستحق عليها كل ثناء .

اما حين تقرأ القصة الاخيرة من المجموعة ـ سالي ـ فانت تشعر بذلك الخدر اللذيذ والنشوة العارمة حيث تسير بركب المؤلف ينقلك بين تلك الاجواء الساحرة ، جو القرية العربية قبل خمسين عاما ... حيث

يتحدث خادم الاسرة « دحام » عن تلك الليالي الصافية وعهد الفروسية الجميلة « ولو نطقت مواطيء حوافر الخيل في هذا السهل الذي تنزله اليوم لحدثتنا عن جولات ذلك الفتى وتلك الفتاة على ظهر فرسيهما في سفوح التلال المعشبة واغوار الوهاد الندية . اما النجوم ، نجوم هذه البادية الفسيحة فكم رأتهما ممددين على ظهريهما يستطلعان اليها في هذه الربعة ، دون ان يتكلما . » جو القرية العربية وجو استكهولم وابسالا و... سالي حيث يتحدث المؤلف عنها جميعا بروية ولذة واسهاب

والقصة رائعة من حيث الاسلوب والسرد الجميل والحوار ، وبديعة من حيث الحبكة القصصية والكمال الفني . اما من حيث الواقعية ، فهناك من حيث الحبكة القصصية والكمال الفني . اما من حيث الواقعية، فهناك نوعان من القصص قصص واقعية موجودة ، وقصص ممكنة الوجود ، وسأضيف الى هذين اللونين من القصص لونا ثالثا ادعوه بالقصص النادرة الوجود واصنف « سالي » في هذا اللون الاخير منه . هذا الى انها رفاه ذهني خالص ومتعة عقلية صافية لا اكثر ولا اقل .

أما بعد فهذه المجموعة من القصص تعد بحق من أقوى القصص التي ظهرت في المدة الاخيرة في عالم الادب العربي ، ولم ينقصها شيء من النضج او الكمال الفني او الاسلوب الحسن او اللغة الانيقة الراقية والكلمات الجميلة المنتقاة لولا ذلك الترف الذهني الخالص الذي نجده في بعض اقاصيص المجموعة ، ولولا تلك الحوادث اللاواقعية التي تصدمنا في بعضها الاخر والتي اكتسبها المؤلف او أخذها من رحلاته الكثيرة وحبه للمغامرة في هذه الرحلات على الدوام .

دمشق ـ الجامعة السورية — جورج دولباني

القصة العراقية

لجعفر الخليلي ـ ١٢٠ صفحة ـ حجم صغير ـ مطبعة المعارف ببغداد

هو دراسة سريعة للقصة العربية عامة والعراقية خاصة ، بحث فيه الاستاذ جعفر ، اجماليا وبصورة موفقة ، تاريخ القصة العربية منذ خلقها حتى يومنا . ولا شك ان هذه العجالة يمكن ان نعتبرها نواة لدراسات مفصلة عن كل ما يتعلق بالقصة العربية في جميع نواحيها واتجاهاتها .

ومن تتبع تاريخ الادب العربي باخلاص وتجرد رأى ، خلافا لما يظنه البعض ، ان القصة كانت من العناصر التي مثلت دورا هاما في الاتجاهات الادبية العربية المتعاقبة . ولا شك ان من ينعون على الادب العربي خلوه من القصة اما ان يكونوا قد تأثروا باقوال غيرهم ، من اعداء الادب العربي، دون اجهاد انفسهم بالبحث والاستقصاء ، او انهم مغرضون يريدون طمس الحقائق فانتقصوا التراث العربي وجردوه من ناحية هامة في حياته المتعاقبة

أقول هذا دون مبالغة او اندفاع عاطفي ارعن ، فالعرب عاشوا القصة في كل فترة من تاريخهم ، بل في كثير ما تركوا لنا ، القصة الواقعية الصحيحة ، تلك التي بدأ الاتجاه الحديث يعطيها أهمية وقيمة فقط هناك فرق الازمان ، والاتجاهات الفكرية ، وتطور الحضارات التي تضفي على الشكل وجوها عديدة ، دون ان تمس الجوهر في ذاته . شانها في ذلك شأن كل مرافق الحياة ومقوماتها .

فقصة مقتل الحسين ، « لابي مخنف » لا تقل بنظر الباحث المجرد، قيمة عن قصة « الحرب والسلم لتولستوي » تلك القصة العصرية التي هزت مشاعر العالم باجمعه سواء أكان ذلك من الناحية الفنية للقصة ام من ناحية العرض ، وتصوير اهوال الحرب والتضحيات والايثار الانساني وغير ذلك .

واقصوصات الاصمعي والجاحظ وغيرهما لا تقل فنا عن احدث النوادر والاقاصيص المشوقة الفنية ... بل ان الادب الحديث، اخذ يسير على هذه الطريق مع شيء من التنويع والتوشية ..

هناك تجديد ، لا شك ، فالزمن ، وتقدم الانسان ، ومجمل التجارب الجماعية ، كلها عوامل تؤثر تأثيرا كبيرا على الافكار والنفوس . اما الجوهر فلم يختلف ...

سردت هذه العجالة القصيرة لاظهر حاجتنا الماسة الى باحث عربي مخلص يقوم ، بكل نزاهة وصدق ، بدراسة ادبنا العربي القديم ، فيستخلص هذه الكنوز ليعرضها على الناس ويطلع العالم على قيمة تراثنا القصصي المليء بشتى فنون القصة الملائمة لكل من عصورها المتعاقبة.

واذا كان الاستاذ الخليلي قد قام بهذه الدراسة السريعة واتحفنا بكتيبه « القصة العراقية » فهو بادرة يشكر عليها ، ويمكن ان نعتبرها خطوة في سبيل دراسة اوسع تتضافر فيها جهوده العارمة ، على ما عهدناه منه . فيتحفنا عما قريب بدراسة شاملة واسعة عن القصة العربية في مختلف مراحل تاريخها .

ورغم ان عنوان الكتاب ، يختص بالقصة العراقية ، الا ان البحث كان اعم واشمل . فقد تطرق الى القصة العربية بصورة عامة ، متحدثا عن أثر العراق في هذا التراث العربي . فهو في معالجته خرج من تلك الاقليمية الضيقة ، لينطلق بنا في اجواء العالم العربي دون حصر ، فجال معنا جميع المواطن التي مر بها تاريخ القصة العربية .

وكتاب الاستاذ جعفر موفق في مجمله ، رغم انه عجالة وحديث عابر، ويمكننا ان نعتبره مقدمة لموسوعة يسرع بها على العالم العربي ليتفهم الناس حقيقة تكاد تكون مجهولة بالنسبة لهم . ويتم للمكتبة العربية بحث جدير بها تحتاج بالحاح الى امثاله من الدراسات والبحوث .

اما اسلوب الكتاب فهو كاساليب سائر كتب الاستاذ الخليلي، رزين، سلس ومتين ، له شخصيته الخاصة المستقلة عن اي تأثيرات خارجية . وهذا ليس بغريب من اديب كبير كاديبنا العربي العراقي .

سامي دارغوث

أي غد ؟

لقسطنطين زريق ـ ١٩١ صفحة ـ نشر وطبع دار العلم للملايين بيروت

أصدر الاستاذ قسطنطين زريق كتابا جديدا اسماه : « أي غد ؟ دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوة .» وقسطنطين زريق واحد من ارباب التربية المعروفين في الاوساط العربية . احب مهنة التعليم ، فانخرط في سلكها يخدمها بحيوية ، واخلاص ، وتفان ، ويبذل كل ما في وسعه لتقدم طاقتها ، وازدهار انظمتها . وكتب ، فكان له ادب رفيع في كتب تلقفناها ، وقرأناها بشوق ،لما فيها من دراسات شيقة مركزة على الافكار الصائبة المستوحاة من عقل ينضب بالذكاء الحاد ، لا هدف له سوى الاتيان بعمليات مفيدة ، من اجل النهوض بعالمنا العربي ، ان من النواحي الادبية ، او الاقتصادية ، او السياسية ...

وكتاب « أي غد ؟ » يحتوي بين طياته على دراسات ست لبعض بواعث نهضة العالم العربي المرجوة ، القاها المؤلف كمحاضرات ، ثم جمعها لتكون نبراسا ، تستضيء به البيئة العربية الحديثة التي تساير الزمن

ففي فصل « المفكر العربي وتبعاته » نقع على دراسة ممتازة للمفكر العربي ، هذا المفكر الذي عليه ان يكون صادقا في سرد اقواله ، وتمثيل ادواره ، آخذا الاحتياطات اللازمة للمهمة الملقاة على عاتقه ... انه حجر الزاوية في المجتمع ، اذا انهار هذا الحجر ، انهارت حيطان البشرية ،

وتلاشت امانيها الجسام . وبما اننا اليوم نمر في أوقات حرجة قد تودي بعالمنا العربي الى الانحلال ، فالدمار ، اذا نحن تجاهلناها ، يلزم على المفكر ان يكون حذرا من تصرفاته ، وان يحس بالازمة ــ مهما كان نوعها ــ ويتمثلها دوما امام ناظريه . وعليه أن يعالج موقفها الخطير بعناية ، وشغل مستمر ، وان يكون واعيا لمتضمناتها ، لا يهتم بالقشور دون اللباب . « ولذا كان على المفكر العربي اليوم ان يقبض بعقله وبصيرته النيرة على اصول الشدة التي تعانيها امته ، لا على ظواهرها الخارجية فحسب ، ليقوم بوظيفته في تشخيص حقيقة الداء واقتراح ناجع الدواء . فان لم يبلغ هذه المرتبة ، كان اي تأثير تحدثه الازمة في نفسه تأثيرا عاطفيا ، غير مبني على الفهم والادراك ، وبالتالي غير مؤد الى الخلق والابداع او فاعل في تخفيف الشدة ومعالجة الحال . » والمفكر الحقيقي عليه ان يتجشم الاسفار ويتحمل المصائب التي تعترض غايته النبيلة لتحد من نشاطه ، وتهدم عقائده الانسانية البناءة . عليه ان يحيا وكل طبقات الشعب ، ليقدر على تفهم اذواقها الادبية والمهنية ...، ومطالبها الصحية والمالية وغيرها . وفي حل مشكلته عليه ان يعتمد على ذاتيته. « فالقضية قضيته ، والصراع في النهاية صراعه .» واذا ربح تلك القضية وانتصر على الصراع هذا ــ بعد ان تكون الازمة العربية قد انعكست في نفسه ــ يكتسب أنضج مرتبة في امته والمعها .

وفي « المجتمع التقدمي » يحدثنا الاستاذ زريق عن المجتمع العربي المتحرك حسب الازمنة . وقد اسماه بالمجتمع الديناميكي نظرا لعصر السرعة الذي يعيش فيه ، ونظرا لتمييزه بالقوة الموجودة بانتاجه العقلي والمادي . وعلى العقل ان يلعب دورا اساسيا ومهما في توطيد سلطان المجتمع التقدمي ، في عالمنا الشرقي ، توطيدا قويا من ركائزه الثبات ، والتضحية ، والاستقرار ، والتضامن ، والسؤدد ، والرفاهية ... ولا تقتصر حيوية المجتمع المتطور على اعماله الخارجية ، من بذل المساعدات العسكرية والثقافية والزراعية والصناعية ... ، فحسب ، بل على اعماله الداخلية التي يجب ان تؤمن اولا . فبقدر ما تكون هذي الاعمال سائرة سيرا سليما وامينا ، ولاحقة ركب الحضارات العالمية ، يصح وقتئذ ان ننعت مجتمعنا بالتقدم . ونظرة واحدة على مجتمع اليوم ترينا بجلاء كيف تغلب الانسان على الطبيعة باستخراجه مواردها الدفينة من جوفها ، وكيف انتقل مجتمعنا ــ اجمالا ــ من طور الرجعية والركود ، الى طور التقدم والانصهار في بوتقة العمل الجدي الذي يورث ثمارا جيدة . هذا، ويروح المؤلف يقابل في هذا الفصل بين البيئة المتاخرة وما تجر وراءها من ذل وانحطاط ، وبين البيئة التي غذتها ارواح الازدهار والكسب بفضل رجال الفكر القائمين على تأمين مستقبلها تامينا متينا ، وخصوصا بفضل تغلبها على اهوائها . زد على ذلك ان للمدرسة فضلا واسعا في تكوين المجتمع الصحيح المحترم الحامل على منكبيه رسالة الاصلاح والعمران .. والذي يتساوى فيه المواطنون بالفرص ، « فلا يستاثر فيه فرد بفرد ، او فريق بفريق بحكم ولادة او ارث او جنس او أي فارق عرضي اخر .»

وفي فصل « العرب والثقافة الحديثة » ، يحثنا صاحب الكتاب على ان نحيط بمقومات الثقافة الحديثة اذا اردنا ان ندرك موقفنا منها ، وموقفها منا . « فالمحك الاخير لاية ثقافة من الثقافات هو نظرتها الى الانسان . وفي هذه النظرة تلخص صفاتها الاساسية المنبثة في مظاهر انتاجها المختلفة من علم ، وفن ، وفلسفة ، وسواها .» والثقافة الحديثة ، التي يماشيها العالم اليوم ، لها جذور تمتد الى اقدم العصور . لقد كانت الاكتشافات فيما مضى ظاهرة امام العيان ، لكنها جد ضئيلة بالنسبة لعصرنا هذا . ومرد ذلك عائد الى حدود الثقافة التي كانت تضع امكاناتها امام اشخاص معينين . اما اليوم فاصبحت الثقافة متوفرة في اغلبية البيوتات ، ان لم نقل في كل بيت . وبفضلها تعددت الاكتشافات . فصار الانسان الحديث يقرب اصقاع العالم بعضها من بعض ، ويسود اليابسة ، ويسيطر على البحار والفضاء والبوادي ، وينهض بالحياة الاجتماعية .

واذا اخذنا على بساط البحث ثورات داروين ، ونيوتن ، وديكارت العلمية وما ادت للحياة الاجتماعية الغابرة من خدمات جليلة ، نرى بكل ظهور ووضوح انها ما زالت ــ جانب الثورات العلمية المتتابعة التي تبصر النور كل يوم في عصرنا الحاضر ــ مرتعا خصبا لطلاب العلم واصحاب النظريات والاراء القويمة ... فالثقافة الحديثة رغم تطورها المبدع ما فتئت تنظر الى الوراء ، وتغرف من الثقافة القديمة الخالدة ، وان افترقت عن نظمها احيانا وحاربت بعض قوانينها ...

وبعد ان ينتهي المؤلف من تعداد مآثر الثقافة الحديثة ، يشرع بالقاء نظرة على الثقافة العربية الحاضرة التي تأثرت بالثقافة الغربية تأثيرا ملحوظا فثقافة اليوم هي غير ثقافة الامس . لذا يجب علينا ان نرعاها بادراك وانتباه ، ونسارع باعلان شانها لتقودنا الى مصاف العالم الغربي ذي الانتاج الادبي والعلمي الخصب . هذا ويتساءل صاحب « أي غد ؟ » عن « الانتاج العربي العالمي في الرسم والنحت والموسيقى والمسرح، وعن النفس العربية المصقولة بالاحساس الفني ، المطهرة بناره ، المتسامية الى ذلك الابداع الذي به يقترب المخلوق من الخالق ويحاكيه . »

وفي الفصول الباقية ، يتناول المؤلف المدرسة ، ويطلب منها ان لا تحشو عقل التلميذ بالدرس النائي عن الشروح التطبيقية ، ثم يذهب يفسر تأثير اهواء الحكام الحزبية بعقول التلامذة ، ويناشد الاهلين ان يسهروا على ابنائهم ويدعموهم بروح الاعتماد على الذات، ويطالب من الحكومات العمل المفعم حيوية لتعداد المدارس ، ومن المثقفين ان لا يكفوا عن ابحاثهم ان علمية او ادبية او مهنية... ويتناول التربية الحديثة والقديمة فيطلب منا ان نبذل جهودا جبارة لحماية الجهد التربوي ، ولتحرير جماهير المجتمع العربي من الامراض الطاغية عليه كالفقر ، والمرض ، والجهل ، وما يتولد عنها من علل فتاكة اخرى ...

والان، ان القينا نظرات الى افكار المؤلف في « اي غد ؟ » نجد الافكار الثانوية متفقة والفكرة العامة ، جلية الوضوح ، عميقة طريفة . انها ــ اي الافكار ــ نائية عن الغموض ، تنم عن ثقافة رحبة المجال يحتل ربوعها الصدق والبساطة واللحمة هذا من ناحية ، ومن ناحية التوليد والابتكار ، فليس لهما مكان في كتابنا هذا . فرغم ان المؤلف أدى لقراء لغة الضاد خدمة جلية ، ناصعة ، لفهم اوضاعهم الاجتماعية ، وذلك بتشخيص المرض ووصف العلاج له ، لم يتوصل الى اختراع نصائح خاصة به . لقد غلبه التقليد بحيث لم يك بمقدوره ان يحيد عنه ، بل انه سار في دربه منصاعا لندائه . فالذين تكلموا ــ قبله ــ عن المجتمع وانتقدوا علله في مؤلفاتهم لكثيرون ، ولا ننكر عليهم انهم اجادوا في وصف الادوية التربوية وصفا أدى الى مضاعفة الجهود للمنافحة عن الامة العربية ودعمها بعناصر الثقة ... وكأني بالاستاذ زريق ، في حرصه على ترديده بعض الافكار ــ يتكلم ، مثلا ، في فصل ما عن ضآلة العمل المهني ، ثم يذكره في فصل سابق ، وهكذا دواليك ــ يريد ان يثبت لقراء العربية انه ما يضمر لهم الا الامنيات الحلوة ، ويدفعهم الى مساندة مجتمعهم المتحرك واضعا نصب اعينهم النصائح الكفيلة بانشاء وطن ابي يفتخر بسيادته ، ويعتز بابنائه ... وعندما يتكلم عن حب الطبيعة وجودها الدائم على الانسان ، نلاحظ انه تأثر باراء اديب فرنسا العبقري روسو .

اما من ناحية الاسلوب ، فقد وفق المؤلف باقصاء الالفاظ والتراكيب المجبولة بالغريب عن كتابه ، وباستخدام الالفاظ المانوسة التي لا يشوبها ابهام . انها الفاظ محكمة ، تجعل القارئ لا يشك من ان مبدعها صاحب نظرية متفاءلة في عالم الادب التربوي ، يحس بضرورة تنسيق الاسطر تنسيقا صريحا وسهلا يتفق وذوق المطلع عليها . ومن ثم ، فقد داب على ان يخيط جمله ، الطويلة النفس غالبا ، بخيوط الجزالة والمتانة والرزانة شانه في « تاريخ ابن الفرات » و « الوعي القومي » ، و« معنى النكبة ».

ابراهيم عبدو الخوري



كيف ينشأ العلماء

●

ما الذي يدفع بالطالب فتى كان ام فتاة – لان يصبح من رجال العلم وخدامه ؟ ايكفي لذلك ان يدرس الطالب عددا من الموضوعات الموصوفة في منهاج معين ، او ان هنالك وصفة سحرية تنصب للعلم قبابا مرتفعة . مثل هذه الاسئلة وغيرها كثير مما يمت بصلة وثقى للعلم والعلماء والاسس الركينة التي تقوم عليها طرحها الطلاب وجاء الجواب عنها امام الف من طلاب العلوم التفوا حول فئة مختارة من كبار العلماء ومشاهيرهم في الاجتماع السنوي العاشر الذي حرصت على احيائه لمدة اسبوع سنة بعد سنة ، الجمعية العلمية الاميركية لتقدم العلوم .

وقد ارسلت المعاهد المختصة بتخريج طلاب العلم في منطقة نيويورك ، لهذا الاجتماع السنوي ، خير من لديها من نوابغ طلابها وادعاهم استبشارا وفالا ، في المستقبل الطالع . وترك لكل من هؤلاء الطلاب الحرية التامة في توجيه ما يرغب من الاسئلة لفريق من اساتذة العلوم انضم اليهم ثلاثة طلاب جرى انتقاؤهم من بين المتفوقين من طلاب المعاهد العلمية في صفوفها العليا .

فقد عالج الدكتور روبرت برنشتاين المدير المساعد لمختبر الابحاث الكهربية في جامعة كولمبيا الاسباب والعوامل التي تحدوبالشباب الى الاقبال على العلوم وذلك بالاشتراك مع الدكتور مورطن زندر ، الاستاذ المساعد في معهد روكفلر الطبي لعلمي الامراض والميكروبات

ومما قاله الدكتور زندر : « انني مدين في اقبالي على العلوم لابي الذي كان دائما يجيب على الاسئلة الصبيانية التي كنت اوجهها اليه لفهم طبائع الاشياء التي تقع عليها عيناي مع انه كان بامكانه ان يرد على باجوبة جوفاء عارضة ولكنه لم يفعل » .

وقد خطر لاحد الطلاب ان يسال احد الاساتذة ما اذا كان من الضروري لطالب العلم ان يدرس اللغات فرد عليه الدكتور برنشتاين قائلا :

« يستحيل ان يصبح الواحد منا عالما وهو قابع في برجه العاجي منزو عن الناس . فالكثير من المعلومات الاساسية التي نحتاج اليها للبناء انما نستمدها من مساهمة الغير ، محيزة في الكتب والجرائد . ان منحة العلم منها ما هو مستمد من ممارسته والقسم الاخر من قوتنا على الملاحظة والتجربة . وهذا يعني انه يترتب على طلاب العلم ان يحسنوا الى ابعد فن الاتصال الذي يمكن له : اللغة والرياضيات .

والصفة المميزة التي تفرق بين العالم وغير العالم هي الفضول العلمي او حب الاطلاع كما يرى الدكتور دون هربرت احد العلماء البارزين الذين يشرفون على مناهج التلفزيون في ثلاث شبكات وطنية للبت لتبسيط قضايا العلم ومشكلاته للجمهور . فالفارق الاساسي بين ذهن الفتى والكبير من الوجهة الفكرية يقوم في ظاهرة الفضول العلمي في الصغير . فالاطفال هم فضوليون بحكم الطبيعة انما يفقدون هذه الملكة كلما تقدموا في السن . وبوصفكم من رجال العلم في المستقبل يجب ان تغذوا فيكم دوما حب الفضول واذا كنتم ترغبون حقا في هتك حجب اسرار الطبيعة لا تأخذوا الظواهر حقائق قائمة ، وامضوا في تسائلكم وفي تحريكم للحقيقة بانفسكم .

وتكلم الدكتور هوبرت ن. اليا ، احد الخبراء العاملين في مختبر فريك الكيمائي في جامعة برنستون عن : « الحظ والصدفة والذهن المعمد علميا » . وقد جاء من حوادث التاريخ بشواهد عديدة على نظريته . فقد ذكر ان عددا من الاختراعات المهمة في التاريخ تمت صدفة واتفاقا ولولا استعداد المراقب وتهيؤه علميا على تسجيل الظاهرة العارضة والافادة منها لما تمكن قط ان يأخذ يدا من الفرصة الناهزة . ان مشاهدة اسحق نيوتن لتفاحة تسقط مكنه من وضع ناموس الجاذبية اي قانون الجذب وضرب على نظريته امثلة اخرى ذاكرا كيف ان سائلا ما يرغي ويزبد لا يلبث ان يتخثر ويتحجر اذا ما مزج بعنصر كيماوي معين » .

ثم تكلم الدكتور بول سيرز ، رئيس الجمعية الاميركية لتقدم العلوم فذكر الطلبة بحقيقة كبرى ، قائلا : « مع تسليمنا بكل ما يؤدي اليه العلم من ازدهار مادي وما يفضي اليه من تقدم البشرية وفلاحها فلا ازال ارى ان قيمة العلم الكبرى تقوم في هذه العبرة التي تقدمها لنا ، هو وجوب بقاء بابه حرا مشرعا امام الجميع على السواء . واني لارجو ان تحملوا ابدا معكم في نفوسكم وارواحكم الروح العلمية الصادقة ، اينما نزلتم وانى حللتم ، سواء أطلبتم من العلم خبزكم اليومي ام لم تطلبوا .

وجوابا على سؤال احد الطلبة عن الحد الذي يفصل بين طالب علم وعالم او حتى يستحيل طالب علم الى عالم ، اجاب الدكتور سيرز قائلا : ليس باستطاعة احد ان يعلمكم شيئا . عليكم ان تتعلموا بانفسكم .وستبلغون مرتبة العلماء يوم تستطيعون ان تقوموا بمطلب العلم وتسهموا في رسالته ونقلهالى الاخرين بقطع النظر عما يلقبكم الناس به .

ملامح

تصدير لمعرض وزارة التربية والفنون الجميلة

●

للفتوة لطافتها وعذوبتها ، وبها حدة البحث عما جال في الارضوخفةالتشوف الى ما حام حول الافق . ومن طرائفها القلق والتردد . وكلما عزمت فاقدمت دفق من بين عطفيها رقائق تترقرق فتملا ايدينا بالعطايا الخفرات . لا كبرياء ولا ادعاء .

هذا المعرض الخامس للتصوير والنحت عنوانه الفتوة . فتوة متجسدة ، بعد ان جاز لبنان في العصور الخوالي اطوار العمر كله حتى مسه التعب تحت حديد قرون سود . غير ان الحديد ما قدر ان يقتل خفائف الانفاس فظل بريق الرؤى يلمع في صوامع الديارات ومنها انسرب في مسالك الجبل والمدينة : صبابة وهج طالما هجم من كوى ونوافذ ، كان لبنان يبصر منها بنزهة الدنيا وفتنة السماء ، فاثبت محساته ولمحاته في روائع الفن .

اهلا بفتوة اليوم تقبل كالقطر النقي يحيي الارض هجرها الخصب زمانا . اقبل فبشر بالزهر الزاهر ووعد الحس انه معطيه افخر العطر ، وبالوعد ينعم الناظر اليقظ .

الواح وبضعة تماثيل ولدت جميعا في محارف لبنانية ، سوتها انامل مشغولة بقيد السوانح ونظم الهواجس . وبعض الانامل للمحترفين وبعضها للمستطرفين . وما نظرت لجنة المعرض على سبيل الفحص والانتقاء الا في اثار المستطرفين ، اذ رسم لها ان تجعل المحترفين مسئولين عما بعثوا به لانهم اهل الصناعة فلهم ان يحسنوا التمييز بين الرهيف والكثيف ... وان شق التمييز

احيانا على من ينقد ولاذ قريحته .

وجرت اللجنة في ذلك الفحص وذلك الانتقاء على نسق قوامه البحث عن الاحساس الصادق والاداء الحاذق . على انها تجردت عن الاهواء فتورعت عن مطاوعة الذوق الهين او الذوق المتشيع لنمط من الانماط . ذلك انها تعلم ان الفن اليوم اصبح يسع الوانا من النشاط تجري من طرف الى طرف ، فخرج عن نطاق الاساليب المتوارثة حتى انه ربما نفض الناظر نفضة من ورائها دهشة او نفرة.. ولى العهد الذي فيه كان الفن يتطلب الجمال من كل جهة ، ويعبر عن الكيان الانساني الاتم ، ويعتمد الملموس والمنظور وحدهما ، ويحصر المعالجة في نظام من الطرائق والوسائل مجربة محكمة . ففي المعرض باقة تنوعت اصباغها .

وابت اللجنة ان ترخي بعض الجفن وهي تتصفح الالواح والتماثيل . ما زين لها التهاون ان الفن في لبنان ناشىء ، ولا سوغ عندها التيسير ان بروز لوح او تمثال في معرض وطني ضرب من ضروب التشجيع للمبتدئين والاغراء للمقبلين على الصناعة من باب التسلي او التظرف . فليس الترخص في صعيد الثقافة الرفيعة من اسباب الترقي. وبالشرق العربي اليوم حاجة الى التزام الجهد في جد حتى يخرج الى فسحة اللطف فيصب جدولا من قطران البلور في نهر العرفان يفيض في مروج الدنيا فيسقى من ظمىء فؤاده . وفي ذروة الثقافة الرفيعة مطالب الذوق .

ولن يتلو معرض معرضا في السنوات الاتية حتى يكون الفنان قد زوى بعض مخيلته وطرفا من كفه عن محاكاة المذاهب الافرنجية مهما غلغل اثرها في المحارف واستقر جاهها في الاذهان ، فيخرج من فتوته اذ يلتمس وحي ارضه وسمائه ويتعقب اساليب اجداده فيعرض علينا ما يخاطب الروح على الفور وقد ترف فيها خيالات واشارات اصيلة نظمتها اليوم حفنة من الالواح ولاسيما من التماثيل ترف فيها خيالات واشارات اصيلة نظمتها صنعة صحيحة ، مما ينبىء باشراق ذلك اليوم العظيم . ولبنان حقيق والله به .

بشر فارس

عضو الجمعية الدولية لنقاد الفن

تراث برقة

●

عاد المثال الدانيماركي فيتوس نيلسون الى كوبنهاجن بعد انتهائه من بعثة فنية في ليبيا لحساب منظمة اليونسكو . وقد استطاع هذا الخبير الاخصائي في ترميم التماثيل القديمة ان يعيد الى كنز الحضارة الانسانية تراثا فنيا منسيا مضى عليه اكثر من الفي سنة .

وقد عهدت اليونسكو الى نيلسون الخبير بمتحف كوبنهاجن ، الاشتراك في ترميم التماثيل اليونانية والرومانية في برقة ، وكانت قد نقلت من طرابلس الى الصحراء خلال الحرب العالمية الثانية . وتعتبر هذه التماثيل تراث اغنى مستعمرة يونانية شيدها باتوس في القرن السابع عشر قبل الميلاد .

ويروى المؤرخ هيرودوت ان وحي آلهة دلفي قد امر باتوس ان يقود بعض سكان ليبيا نحو مكان « يقع بين المياه » يشيدون فوقه مدينة . وخيل عندئذ لباتوس ان هناك جزيرة فجعل رجاله يقيمون في جزيرة جرداء عند خليج بومبا . ولما فشل مشروعه هذا استلهم الوحي مرة ثانية فامره ان يعود الى القارة من جديد . وهكذا اتجه اليونان بقيادة الليبيين البرابرة الى مكان زاخر بالموارد ، وهناك ادرك باتوس المكان الذي « يقع بين المياه » ، الذي تحدث عنه الوحي ، فقرر ان يشيد عليه مدينة اطلق عليها اسم عروس البحر « سيرن » ـ برقة ـ ابنة هيبسة وام ابستيه .

وفي عهد برقة الذهبي كان يقطنها حوالي مائة الف نسمة واشتهرت بمجدها الثقافي !! كانت تضمه من معاهد عليا للطب ولما انجبته من رجال مشهورين من امثال الشاعر كاليماك وكاريناد مؤسس اكاديمية اثينا الجديدة ، واريستيب تلميذ سقراط ورئيس المدرسة الفلسفية المعروفة باسم مدرسة برقة، واراتوستين المؤرخ والشاعر المسيحي سينزيوس .

وفي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد ، اصبحت برقة ـ وقد انتقلت من مملكة الى جمهورية ـ تحت حكم البطالسة . وفي ذلك العهد بدأ سقوطها وان لم تفقد كل عظمتها الا عندما وقعت في ايدي روما في عام ٩٦ قبل الميلاد . وفي القرن الرابع الميلادي كانت برقة مدينة مهجورة ، واصبحت بعد مائة عام اطلالا باهتة . وقد اظهرت الحفائر عن قلاع وحصون منيعة ، ومعابد ومنشئات عامة وتماثيل عدة . ومن اجل هذا التراث التاريخي الباقي اوفدت اليونسكو الخبير نيلسن لمساعدة السلطات الليبية في الكشف عن مجد برقة الغابر .

وقد تحدث الينا نيلسن عند عودته من ليبيا كيف طلب اليه مراقب الاثار في ليبيا ان يبادر بزيادة برقة ليبدأ بجمع القطع والاجزاء التي تغطي ارض المتحف حتى ابوابه.

وظل هذا الخبير الدانيماركي يسعى طوال اربعة شهور لحل مشكلة فنية دقيقة ، فالى جانب قطع التماثيل التي تحطمت خلال الحرب واثناء انسحاب القوات ، كانت الارض مغطاة ايضا باجزاء عديدة اخرى اكتشفتها اجيال من الاثريين البريطانيين والايطاليين . هذا وكانت مهمة الخبير الدولي نيلسن ان يدرب عددا من موظفي المتحف على مبادىء عملية ترميم الاثار الفنية . ويؤكد نيلسن ان هؤلاء الموظفين قد نجحوا اخيرا في تجميع قطع التماثيل التي تحطمت خلال الحرب . كما اجريت اكتشافات عدة ، منها جزء حجري ضخم من تمثال تزوس كان يرتفع قديما على احد تلال المدينة .

ويؤكد نيلسن ـ في تواضع وتحفظ ـ وجود قطع اثرية اخرى لها قيمة فنية كبرى ما تزال بين البقايا المحفوظة في متحف برقة .

وفي غمرة هذه البقايا عاش نيلسون نهاره وليله ، وظل طوال بعثته ينقب عن احجار الحضارة القديمة بين مدينة ومدينة ، دون ان يدركه ارهاق او ملل ، اما نيلسن نفسه فيذكر ايام بعثته في لذة عميقة ، وها هو ذا يقول « ان تاريخ النحت ليس مجرد وظيفة لي ، ولكنه ايضا مسرتي ان لم يكن سر وجودي » .

دانيال بهرمان

اللغة والبشر

●

كان يقول الامبراطور شارل كان ـ وقد اشتهر بتعمقه في علوم اللغة ـ « ان المرء يجب ان يتحدث الى حبيبته بالايطالية ، والى الفتيات بالبرتغالية ، والى اصدقائه بالفرنسية ، والى القطيع بالالمانية ، والى الاوز بالانجليزية ، والى الحمام بانسويدية ، والى الحصان بالهنغارية ، والى الشيطان بالتشيكية ... »

وكان يريد الامبراطور بهذا ان يقول ان لكل لغة شأن كل شعب شخصية فريدة اصيلة وخصائص ذاتية يستحيل تقليدها . واذا سألنا سكان بلد عما يجعل منهم شعبا اجابوا بلا شك « ارضنا » التي نعيش معا فوقها ثم « اللغة » التي نتحدثها جميعا . فاللغة تمثل التراث بعينه ، وهي للشعب التي يتحدث بها شان الوديان والانهار والريف في

اراضيه ، بل شان الهواء الذي يتنفسه .

على اننا نلمس في اللغات المختلفة نفوذا متبادلا بين شعب واخر ، فنعرف مثلا ان الغزو النورماندي ادخل الى انجلترا العمارة وفن الطبخ والعلوم الحربية الفرنسية ، ومن هنا لا نعجب اذا راينا في اللغتين الانجليزية والفرنسية نفس منطوق الكلمات الدالة على لحوم البقر والغنم والجاموس .

واما الامبراطورية العربية وقد نهضت بتعاليم اليونان القديمة ، فقد ادخلت الى اسيا واوروبا الوسطى المفاهيم الرياضية والعلمية التي جاءت منها مثلا كلمات « جبر » و «كحول» وكذلك لاعداد العربيةالتياصبحت اليوم تراثا عالميا . ونرى بالمثل امريكا وقد ادخلت على جميع اللغات كلمة « تمباك » كما ادخلت الصين كلمة « شاي » ، والجزيرة العربية كلمة « قهوة » ، وهناك امثلة شبيهة لا حصر لها .

وهنالك كلمات اخرى كاسماء المدن والجبال تشير الى احداث كبرى في التاريخ العالمي . فالاسكندرية ما تزال تحمل اسم مؤسسها اليوناني ، والفسطاط ـ ومعناها « خيام » ـ وتقع في ضواحي القاهرة تذكرنا بالمكان الاول الذي نصب فيه الفاتحون المسلمون خيامهم . وفي اطراف الفرافرة في مواجهة الصحراء على بعد من وادي النيل عثرت قبل الحرب على قرية صغيرة تسمى « قصر » وتعني معسكر ، شيدها الرومان منذ الفي سنة تقريبا .

ولبعض الكلمات اصول طريفة ، ففي القرن الثامن عشر مثلا كان اللورد ساندويتش شغوفا بالمقامرة ولا يكاد يغادر قاعاتها في لندن ، وبلغ شغفه باللعب الى حد جعله لا يجد وقتا للطعام ، فكان يطلب شريحة من اللحم بين قطعتين من الخبز ، ومن هنا جاءت كلمة « ساندويتش » التي يستخدمها العالم كله .

وهناك تسميات شعبية تكشف لنا عن علاقات اللغات عبرالتاريخ بل تكشف عن ظاهرة ابعد من ذلك واعمق هي ان للغات اصلا مشتركا . فمعظم اللغات الاوروبية التي تستخدمها بلاد تتفاوت في البعد عن بعضها البعض قد خرجت من اصل لغوي واحد ، ونعني به اللغة الهندية والاوروبية . فكلمة اب بالفرنسية Père والالمانية Vater وبالانجليزية Father وباللاتينية Pater وبالغوطية Fadar وبالسنسكريتية Pitr مما يكشف لنا عن اصل واحد اشتقت منه هذه التسميات جميعا . وهناك امثلة شبيهة تعبر عن نفس هذه الظاهرة الانسانية ، نجدها في البحوث اللغوية الافريقية والسامية . وهكذا نقول ان اللغة وان كانت ظاهرة قومية بحتة ، الا انها ايضا تقوم شاهدا حيا على الاصول الانسانية المشتركة بين الشعوب .

برتا جاستر

ماريان اندرسون اشهر مطربات العصر

●

لا مراء في ان ماريان اندرسون هي من اشهر مطربات هذا العصر . الا ان معظم الناس يجهلون الشيء الكثير عن حياتها الخاصة والاعمال التي قامت بها ضمن مهنتها. وقد رفعت مؤخرا الستار عما خفي من امور حياتها في كتاب مشوق نشرته اخيرا مطابع فبكنغ في نيويورك بعنوان : « لله ما اجمله من صباح » .

ليس بغريب قط ان تختار مطربة زنجية لها من قرار الصوت ما لماريان اندرسون عنوانا لكتابها ، آية من آيات الكتاب المقدس ، اذا ما عرفنا ان جميع الحفلات الموسيقية التي احيتها كانت تضم بعض المقاطيع الروحية الى جنب بعض من الاغاني الكلاسيكية الفرنسية والالمانية والايطالية والانكليزية . كذلك ليس بغريب ايضا ان يبدو كتابها هذا متواضع اللهجة بينما يفيض بقصص وحكايات الطفولة والصبا وهي في بيت والدها .. وبالرغم مما اسبغوا عليها من المديح والثناء وما نالته من الاكرام ، فقد ظلت ماريان اندرسون فتاة معتصمة بحبل الحشمة والتواضع يفيض قلبها بالعواطف الدافئة .

عندما رأت ان الوقت قد حان لتكتب سيرة حياتها آثرت ان تستفيض في تبيان الامور والاشياء التي لها من النفس حب ومنزلة . فبدلا من ان تحشو كتابها بالاماديح والمطارحات يغدقها عليها المعجبون بفنها وبصوتها العذب الساحر اخذت تسرد لنا حوادث وعبارات تفيض بعاطفة الشكر والامتنان والاعجاب نحو امها وابيها وزوجها وكل من آزرها وشجعها في مهنتها وكان رقيقا حيالها . ان كثيرين ممن شهدوا حفلاتها الغنائية العديدة التي اقامتها لا بد وانهم فتنوا بعينيها السوداوين النجلاوين اللتين تشعان لطفا وصفاء وهذه الصفات بعينها نراها تبدو في كل صفحة من صفحات كتابها الجديد .

وجدت ذات يوم انها تصلح للغناء . ولكن بين هذا الاستعداد واستصلاح مقدرتها الفنية لندر عليها كسبا حلالا مرحلة شاقة من الجهاد المرير كان عليها ان تقطعها صابرة جاهدة . فهي تقص علينا المراحل التي مرت بها وتعدد الاجواق الغنائية التي اشتركت بها في فيلادلفيا حيث رات النور . لقد كان لصوتها من المرونة بحيث كانت تغني على السواء في الفرق والاجواق الحديثة والقديمة ، وكثيرا ما كانت تدعى لتحل محل مطربات يتخلفن في اللحظة الاخيرة عن العمل لطارىء ما . وكانت بعض المجتمعات تدعوها للغناء فتكافئها بدولارين او ما اليهما . ولما كانت في المدرسة الثانوية اخذت تتقاضى ٥ دولارات عن اشتراكها بكل حفلة موسيقية وقد قال احد الموسيقيين المعروفين يوما لامها في فيلادلفيا : « سجلي علي ما اقول ، ان هذه الصبية ستربح في المستقبل اكثر من ٥٠ دولار في الليلة الواحدة» فرمته البنت وامها بالفلو . ولكن ماريا اندرسون تكسب اليوم بضعة الاف من الدولارات لقاء حفلة غنائية واحدة .

والطريق التي انتهت بها من ٥ دولارات في الحفلة الواحدة الى عشرة الاف دولار لم تكن قط وردا وريحانا بل كانت طريقا شاقة . فقد استطاعت بفضل مساعدة مالية قدرها ٦٠٠ دولار قدمها لها بعض الاعضاء في احدى الكنائس ان تتلقى دروسا غالية الثمن من احد كبار الاساتذة بالموسيقى . وبمساعدة استاذها والربح الضئيل الذي كان يعود عليها اشتراكها في الحفلات الفنائية قررت ماريان ان تجرب حظها لاول مرة على مسرح تون هول في نيويورك ، وهو من هذه المسارح التي كان النقاد الصحفيون يحرصون على غشيانها ليزودوا جرائدهم بنقداتهم . ولم تكن تعليقاتهم على الغالب تكيل لها المدح والاطراء.

كان لوقف النقد الفني منها ان ثبط منها العزم ففكرت يوما بالانصراف عن الغناء . وقد كانت تشعر على ممر الشهور ان الغناء والموسيقى حلا من قلبها عميقا لترغب عنهما ، وبفضل ما كانت تصادف لدى والدتها من التشجيع راحت تتمرن على الغناء من جديد. ولم يمض عليها القليل حتى اختيرت من بين ٦٠٠ مطربة اشتركن في مباراة موسيقية ووقع عليها الاختيار لتغني في ناد لويستسن في نيويورك مع جوقة نيويورك الفنية . ثم جاءت انكلترا للدرس والتحصيل ، ونالت من مبرة جوليوس روزنوالد منحة مكنتها من الذهاب الى المانيا للتخصص فيها بالغناء على يد كبار الموسيقيين الالمان . ومنذ ذلك الحين انفتحت امامها ابواب دنيا الفن على مصراعيها .

فاذا ما نظرنا الى الوراء من خلال السنوات الثمان والاربعين التي قطعتها ماريان اندرسن في مهنة الغناء كان من الصعب علينا ان نميز اطيب ما نالته هذه المغنية من فنون التمجيد والتكريم والثناء . أهو مثلا الوسام الذي

قلدها اياه ملك السويد ، او وسام ادورد بك الذي اهدته لها مدينة فيلادلفيا وهي المدينة التي رأت فيها النور ، ولهذا الوسام في نفسها وقع ومنزلة عظيمان لما له من دلالة ومعنى . فقد رافق الوسام هبة بمبلغ ١٠ الاف دولار رأت ماريان ان تقفها على مساعدة مغنيات ناشئات يتوسم لهن مستقبل بسام . او لا يكون يا ترى الشرف المؤثل في دعوة تأتيها عام ١٩٥٤ من جوقة متروبوليتن اوبرا لتنضم الى عضويتها مع انه لم يسبق لها ان عملت في مثل هذه الاجواق . وقد بلغت ذروة النجاح في محاولتها الاولى ، ام ان شهادة ارثورو توسكانيني لها : « ان صوتا كصوتك قد لا نظفر بمثله في مائة سنة » .

ولعل اروع هذه الامجاد كلها ، تلك الهزة العاطفية التي شعرت بها يوم عيد الفصح في سنة ١٩٣٩ ، اذ تلقت ماريان اندرسون دعوة من الحكومة الاميركية لتغني امام الشعب في وشنطن على الدرجات المؤدية الى نصب لنكولن التذكاري وفي انتقاء هذا المكان بالذات روعة وعظمة : ألم يكن لنكولن الرئيس الذي حارب في سبيل الدفاع عن العبيد الارقاء وتحريرهم كان ذلك اليوم يوما مشهودا في العاصمة الاميركية ، وحضر الحفلة بالرغم من البرد القارس ٧٥ الف مستمع ومتفرج بينهم اعضاء المحكمة العليا ورجال الحكومة الاميركية .

وانهت ماريان اندرسون كتابها بفصل خاص عالجت فيه المشكلة التي يواجهها احيانا الزنوج مع البيض واعربت عن عظيم املها بمستقبل الزنوج الاميركيين ومستقبل اميركا كمجموعة واحدة . ولعله من حقها ان تعتز وتفاخر بالمساهمة التي قدمتها في سبيل تقدمهما معا.

سينما متنقلة للارياف

●

تواجه معظم بلاد العالم مشاكل معقدة مختلفة بسبب تطور النشاط الثقافي ، ا ذتحرص هذه البلاد على ان تفيد كل انحائها وجميع سكانها من مزايا الحياة الثقافية وتطورها المضطرد . والنرويج من هذه البلاد التي تشعر ربما اكثر من غيرها بحدة مشاكلها الثقافية ، فهي بلد واسع غني بجبال وغابات تضم بين ثناياها جماعات كبيرة منعزلة فيما بينها ، وتفصلها عن المدن الكبرى آماد بعيدة . وتسعى النرويج منذ الحرب لتزويد سكانها النائين بحقهم في الثقافة القومية ، وانماء ذوقهم الفني والادبي، وايقاظ اهتمامهم بالحياة العامة . وادركت هذا النجاح يرجع الفضل الاول للسينماالمتنقلة

وكانت السينما المتنقلة في ارياف النرويج تتسم قبل الحرب بطابع تجاري فلم تكن تعرض الافلام الا في مناطق يمكن فيها تحصيل ايرادات وافرة . ومنذ انشئت (شركة السينما المتنقلة) كانت رسالتها الاساسية عرض احسن الافلام في جميع الانحاء الريفية النائية حتى اقصاها ، مما بعث بين الاف الناس حركة ثقافية حية بعد ان كادت صلتهم تنقطع عن العالم الخارجي نفسه .

وقد انشئت هذه الشركة السينمائية في عام ١٩٥٠ على اسس بسيطة باشتراك الحكومة – فهي المساهم الاساسي في المشروع – وجمعيتين سينمائيتين دوليتين وتسع جمعيات قومية كمنظمات الشباب وجمعيات الامومة والجمعيات التعاونية وغيرها . ومنذ انشاء هذه الشركة والجمعية العمومية النرويجية تدرج لها في ميزانية الدولة اعتمادات كبيرة تسمح لها بالنمو حتى تشمل نشاطها جميع انحاء البلاد . وهكذا اصبح اليوم للشركة اربعون سينما تتنقل بالسيارات ، وست تتنقل بالمراكب البخارية .

ويؤخذ من احصاءات الشركة انها تقدم حوالي ٢٠ الف عرض في ٨٤٠ منطقة ، اعني حوالي ٨٠ عرضا في اليوم في جميع انحاء البلاد ، فضلا عما تعرضه من افلام خاصة في المستشفيات ودور النقاهة .
النرويج في هذ االمجال نجاحا كبيرا . وفي

وتعمل السينما المتنقلة بسياراتها ومراكبها على التوالي ودون توقف ، فتزور كل قرية مرة او مرتين كل شهر وتقدم عرضين كل يوم في اوقات تتفق وظروف كل قرية . ويختلف مكان العرض ايضا فهو احيانا في دار جمعية رياضية او ندوة للشباب ، وهو احيانا اخرى في مدرسة او مصنع او « جراج للسيارات »» ويسبق كل عرض دعاية يقوم بها مندوب الشركة في القرية وهو الذي يتولى ايضا الاجراءات الادارية اللازمة .

واما المهام الاخرى فتقع على عاتق سائق العربة السينمائية ، فهو الى جانب مهمته الاساسية يتولى بيع التذاكر وعرض الافلام، ولذلك يجب ان يكون على علم دقيق بسيارته من ناحية وبآلة العرض من ناحية اخرى ،فعليه وحده تقع مهام التصرف عند الاقتضاء. وكثيرا ما تكون مهمته شاقة ، وعلى الاخص في الاحوال الجغرافية القاسية ، ولكنه في جميع الحالات يجب ان يتصرف بحيث يعرض افلامه في المكان والموعد المحددين ، فلا يقرر الغاء العرض الا في الظروف المستحيلة .

واما المراكب السينمائية فتسير بمحرك وتحمل شخصين او ثلاثة وتزور المناطق والجزر البعيدة التي حرمت جميع سبل المواصلات الاخرى .

وفي عام ١٩٥٥ عقدت صلة تعاون جديد بين شركة السينما المتنقلة وتفتيش المكتبات في النرويج ، واصبحت السينما المتنقلة منذ ذلك التاريخ تنقل صناديق كتب المكتبة الرئيسية في تروندهيم لتزود بها القراء في القرى النائية . ووضع نظام يكفل الاعارة ورد الكتب المعارة في كل زيارة للعربة السينمائية .وهكذا استطاعت الشركة ان تضاعف من اثرها الثقافي وان تحمل عناصر الادراك والذوق والتقدم الى جميع السكان في انحاء النرويج النائية .

وتقدم السينما المتنقلة افلاما عدة تتفق واذواق الجماهير المختلفة ، ولكنها تتميز جميعها بجودة النوع قبل كل شيء . ولا تقتصر البرامج في الافلام النرويجية ، بل تختار الشركة ايضا افلاما اجنبية مختلفة مع مراعاة حداثتها وطابعها الفني العام .

وافين سمنجسن

مدير شركة السينما المتنقلة بالنرويج



٢٥ مارس ١٩٥٧ ـ انتهت المحادثات التي جرت في بغداد بين البعثة السودانية برئاسة رئيس الوزراء السيد عبدالله خليل وبين الجانب العراقي برئاسة رئيس الوزراء السيد نوري السعيد وصدر بلاغ مشترك عن عزم البلدين على توطيد اواصر المودة والتعاون

٢٦ ـ صدر بلاغ سعودي لبناني مشترك على اثر انتهاء زيارة الرئيس كميل شمعون للسعودية وهو ينص على تاييد الشعب الجزائري في نضاله ومناصرة السعودية لاستعادة البريمي والوقوف مع مصر في قضية السويس والتعاون على مكافحة الشيوعية في البلدين وتنمية العلاقات بينهما .

ـ تحدث المستر داليس ناظر الخارجية الامريكية عن نتيجة مؤتمر برمودا فاعلن انه لم يتم أي اتفاق بين بريطانيا وامريكا بشان مشاكل الشرق الاوسط .

ـ بعث الماريشال بولغانين بمذكرة الى النروج يحذرها من مغبة الانضمام الى حلف شمال الاطلسي والسماح لامريكا بانشاء القواعد

٢٧ ـ صدر بلاغ ايراني امريكي مشترك عن محادثات المستر ريتشاردس مبعوث الرئيس ايزنهاور وافقت فيه الولايات المتحدة على زيادة المخصصات المالية لايران لمساعدتها

٢٨ ـ اطلقت بريطانيا سراح المطران مكاريوس المعتقل في جزيرة سيشل شرط ان لا يعود الى قبرص حاليا .

٢٩ ـ صدر بلاغ اردني سوداني مشترك على اثر زيارة الوفد السوداني برئاسة رئيس الحكومة السودانية للاردن وفيه اتباع سياسة موحدة حرة مع قبول مبدأ المساعدات الاقتصادية الغير مشروطة .

ـ تم الاتفاق بين وزارة المستعمرات البريطانية ووفد سنغفورة الدستوري على اسس الحكم الذاتي للجزيرة

٣٠ ـ بعث كرادلة فرنسا واساقفتها بمذكرة شديدة اللهجة الى الحكومة الفرنسية يؤنبونها فيها على الفظائع التي ارتكبت في الجزائر ويطالبونها باحترام كرامة الانسان

ـ وقعت تونس ومراكش معاهدة صداقة وتعاون بينهما

ـ صدر بلاغ باكستاني امريكي عن محادثات المستر ريتشاردس مبعوث الرئيس ايزنهاور مع حكومة الباكستان ونجاحها .

اول ابريل ١٩٥٧ ـ اتهمت وزارة الخارجية السوفياتية الرئيس ايزنهاور والمستر ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا بانهما تآمرا اثناء محادثات برمودا على شن حرب ذرية ضد الاتحاد السوفياتي .

ـ صرح المستر ماكميلان في مجلس العموم انه لم يرتبط باية ارتباطات سرية في مؤتمر برمودا

٢ ـ وقع اتفاق بين مراكش والولايات المتحدة تنال بموجبه مراكش مساعدة اقتصادية تبلغ ٢٠ مليون دولار

ـ استقال السيد حسين علاء رئيس وزراء ايران على اثر مقتل ثلاثة من الامريكيين من النقطة الرابعة على يد اشقياء ايرانيين .

٣ ـ اعلن وزير مالية اسرائيل بان فرنسا منحت اسرائيل قرضا بثلاثين مليون دولار

ـ عين شاه ايران الدكتور منوشهر اقبال رئيسا للوزارة الايرانية

ـ قررت الوزارة الاردنية الاعتراف بالاتحاد السوفياتي وتبادل التمثيل الدبلوماسي معه

٤ ـ انتحر سفير كندا في مصر المستر هيربرت نورمان نتيجة حملة تشهير شنها عليه بعض رجال الكونجرس الامريكي واتهامه بانه عميل للشيوعيين .

ـ على اثر محادثات الحكومة الافغانية مع المستر ريتشاردس اذاع السيد محمد داودخان رئيس وزراء افغانستان بيانا رحب فيه بمشروع الرئيس ايزنهاور .

٥ ـ قررت الحكومة الفرنسية تشكيل لجنة دائمة لحماية حقوق الافراد وحرياتهم في الجزائر وذلك ترضية للرأي العام الفرنسي

ـ حذر الاتحاد السوفياتي هولندا من السماح باقامة قواعد عسكرية امريكية فيها .

٦ ـ القى السيد سليمان النابلسي رئيس الوزارة الاردنية خطابا خطيرا جاء فيه ان الحكومة والشعب في مجموعه ليس شيوعيا انه عربي ولن نسمح لغير القومية العربية المتحررة بان تعيش على ارضنا . وقال نحن لسنا مع الشرق الا اذا كان معنا ولسنا مع الغرب لانه لا يمكن ان يكون معنا فهو يريد استعمارنا واستغلالنا .

٧ ـ صرح الدكتور رالف بانش وكيل الامين العام للامم المتحدة لدى عودته من مصر بان الحكومة المصرية ابدت تعاونا تاما في القاهرة وقال ان الموقف في الشرق ما زال خطيرا .

٨ ـ وصلت الى باريس اليزابيت ملكة انجلترا يرافقها قرينها الامير فيليب في زيارة رسمية لفرنسا

ـ اعلنت امريكا عقد اتفاق مع المملكة العربية السعودية يقضي بالسماح للقوات المسلحة الامريكية باستخدام قاعدة الظهران الجوية مدة خمس سنوات اخرى .

٩ ـ صدر بلاغ عراقي امريكي مشترك عن محادثات المستر ريتشاردس وفيه اتفاق البلدين والتعاون بينهما وذكر المساعدات العسكرية والاقتصادية التي ستنالها العراق .

١٠ ـ صرح الرئيس ايزنهاور بان الولايات المتحدة ما تزال تامل في الوصول الى اتفاق مرض بشان قناة السويس مع مصر .

ـ قدم السيد سليمان النابلسي رئيس الوزارة الاردنية استقالة حكومته الى الملك حسين بناء على رغبة جلالته .

١١ ـ حذر الاتحاد السوفياتي بعض دول الشرق الاوسط من النتائج البالغة الخطورة التي ستجرها عليها اقامة قواعد عسكرية امريكية على اراضيها .

ـ صدر بلاغ سعودي مشترك عن محادثات المستر ريتشاردس وفيه تاكيد السياسة التي وردت في البيان المشترك الذي اصدره في وشنطن الملك سعود والرئيس ايزنهاور

١٢ ـ ابلغت الولايات المتحدة حلف شمال الاطلسي انها ستزود قوات الحلف قبل نهاية شهر يونيو بثلاثة انواع من القذائف الصاروخية المسيرة .

ـ وقعت في طهران اتفاقية اعادة تخطيط الحدود المشتركة بين ايران والاتحاد السوفياتي

١٣ ـ تأزمت الحالة في الاردن والاخبار متضاربة وانقطعت الاذاعة عن البث وتوقفت المواصلات الجوية ولا يعرف حقيقة ما يحدث

١٥ ـ سيطر الملك حسين على الحالة في الاردن والف الدكتور حسين فخري الخالدي الوزارة وهي تضم سليمان النابلسي الرئيس المستقيل وتولى اللواء علي الحياري رئاسة الاركان

ـ انتهت زيارة المستر ريتشاردس لليمن

ـ وصل الى بيكين الماريشال فورشيلوف في زيارة رسمية للصين

١٧ ـ وقعت معركة بين القوات الحكومية وجماعات من منظمة دار الاسلام في اندونيسيا قتل خلالها ٥٠٠ من الجانبين .

ـ وافقت اثيوبيا على مشروع ايزنهاور بعد مباحثات قام بها الامبراطور هيلاسلاسي والمستر ريتشاردس .

مطبعة الشراع
بيروت ـ الحازمية